غادة السمّان

رسائل الحنين إلى الياسمين

منشورات غادة السمان

الطبعة الرابعة

مقدمة من

الرمحي أحمد

كتاب & رواية

facebook.com/groups/bookbooknovels

غادة السّمّان

رسائل الحنين إلى الياسمين

منشورات غادة السمان

الإهداء

أهدي هذا الكتاب
إلى مدينتي الأم ومسقط قلبي دمشق،
مملكة الياسمين والضوء..
إليها..
في لحظة حنين إلى الياسمين.

غادة

الشاعر كذّاب يقول الحقيقة.

جان كوكتو

يا لصحراء الوحشة والاتهامات المتبادلة التي يدعوها الإنسان حباً.

صموئيل بيكيت

في الحبِ الحقيقي، تريد مصلحة الآخر.
في الحب الرومانسي، تريد الآخر.

مارغريت اندرسن

تضاعف بعدَ الفرقة الحبُّ بيننا
وفي القُرب ما يُنئي وفي البعد ما يُدني

الشاعر القروي

منذ أن تخلّيت عن كل أمل، بدأت أشعر بتحسّنٍ عظيم.

جون أوزبورن

أبصرت في منامي أنني فراشة تسبح فوق نور الأزاهير. فهل كنتُ حقاً إنساناً نائماً يحلم أنه فراشة، أم كانت الفراشة هي التي تحلم بانها إنسان؟

شوانغ تسي

كتمت اسم الحبيب عن العباد
ورددت الصبابة في فؤادي
فواشوقي إلى نادٍ خلي
لعلّي باسم من أهوى أنادي

علية بنت الخليفة المهدي

رسالة إلى دمشق . . مسقط قلبي

كل الذين يكتمون عواطفهم بإتقان، ينفجرون كالسيل إذا باحوا.
وها أنا أبوح وأكتب عن مسقط قلبي.
حينما أكتب عن دمشق، تتحول ورقتي إلى شراع أبيض، ويصير القلم في يدي سنبلة وأصابعي قوس قزح.
حينما أكتب عن دمشق تتوهج اللغة الآسنة بالخصب والضوء.
تدبّ الروح فيها فتستحيل الكلمات قبيلة أطفال بعيون فضولية،
تهرول في ملعب الورقة، تتقفز فوق السطور،
تتهامس عليَّ في ركن الصفحة مثل أولاد الحضانة «العفاريت» الذين اكتشفوا ان معلمتهم عاشقة.
حينما أكتب عن دمشق،
أنتحب على حضن الورقة بصمت بدموع من حبر.

★ ★ ★

في دمشق ساحة، في الساحة بيت، للبيت شرفة، للشرفة صبية تروح جيئة وذهاباً طوال الليل. في يدها خارطة العالم. في عينيها مرصد للطائرات الذاهبة والآتية التي كانت تتمنى لو ترحل بها سائحة كونية إلى كوكبنا وكواكب أخرى - إذا أمكن! -
رحلت الصبّية. رقصت الدبكة طويلاً في مواكب الدهشة.
وضعت قدماً في القطب وقدماً في خط الاستواء.

ركضت وعربات الزمن تركض فوقها جيئة وذهاباً ألف عام.
ولكن، لا تزال تلك الصبية في الساحة ذاتها، في البيت ذاته، في الشرفة ذاتها.
منذ أكثر من ربع قرن، لم يتبدل شيء، لكن خارطة الدنيا اشتعلت بين يديها وتحوّلت إلى رماد على الشرفة!
حين أموت، سيكون بوسع الشعراء الصعاليك الثملين في آخر الليل،
أن يشاهدوا تلك الصبية بوضوح،
وهي لا تزال تروح وتجيء كشبح على الشرفة ذاتها، حتى بعد هدم المبنى!

★ ★ ★

قال صديقي خليل حاوي إن المرأة تولد في الشرق بغيّاً ثم تقضي العمر في لفق البكارة.
قلت له إن ذلك ليس صحيحاً دائماً. أنا ولدت نورساً لكنه بلا أجنحة.
وقضيت عمري وأنا أنسج لنفسي أجنحة أطير بها بعيداً!..
حين اكتمل جناحاي وصلب عودهما كان قد حان وقت العودة إلى البيت في دمشق.

★ ★ ★

أتحدّث عن دمشق وأنا أضمر سورية. كأن دمشق هي الاسم الحركي لسورية في قلبي. إنها اللاذقية مدينة أمي، والفرلق وكسب وصافيتا وجبلة وبانياس وطرطوس وحمص ووادي العيون والدريكيش وبلودان وحلب والرقة والحسكة وتدمر

والسويداء وغيرها من مرابع الطفولة والصبا.
أسماء كثيرة لامسية أرددها كمفاتيح موسيقية لأنشودة القلب السرّية...
ليس قليلاً أن تكون أمك الملكة زنوبيا ووالدك صلاح الدين الأيوبي وخالتك ملكة ماري..
ربما لذلك، ركبت في قطارات كثيرة، وأخطأت حين توهمت أنني سأجد درباً لا تقودني إليك.
كل الدروب تفضي إليك يا وطني.. تراني سأعود إلى مدينة القبلة الأولى، لأعيش حبي الأخير؟

★ ★ ★

لم أسافر يوماً وحدي. كانت دائماً معي كأنها سجّانتي،
ترافقني مدجّجة بالصدق القاسي.
لا أكاد أغازل مجهولاً في القطار حتى تشهر أمام وجهي مرآة الحقيقة، فأرى فيها وجوه أحبابي الحقيقيين.
لم تدعني يوماً وحدي،
حاولت الهرب منها في الحانات للرقص مع الغرباء حتى آخر العمر وأقاصي التخدير.
لكنها كانت تلازمني تلك السجانة المدعوة ذاكرتي،
تسكب على رأسي الماء البارد من «نبع الفيجة» في لحظات جنوني،
تتلو عليّ اسم أبي وأجدادي،
تجرّني من شعري في أحلامي إلى مزار «ستي زينب» و«سيدي خالد ابن الوليد»،

فأستعيد وجهي ومحبرتي وأبجديتي.

* * *

أحببت دمشق بجنون المراهقين. كما في حكايا الحب الكبيرة كلها، كان لا مفر من شجار العشاق، والفراق. ذلك الشجار الأهوج الذي ينتهي بعد لحظات أو سنوات - أو قرون - بعناق محموم وتساؤل صادق بلا جواب: لماذا تشاجرنا؟
ربما لأننا أحببنا أكثر مما ينبغي. هل يتصرّف المرء بحماقة نادرة المثال إلاّ حين يكون عاشقاً،
لقد كنت دائماً عاشقة رديئة. أقول لا، وأضمر نعم.
وكلما كبرت «النعم» قلت «لا» بصوت أعلى.
ومثل عُطيل، أحببتك يا دمشق ذات يوم أكثر مما ينبغي..
بتعقل أقلّ.
على حافة الرمادي بين الحنان والقتل،
رحلت مع «ياغو».
منذ التحمنا في عناق يشبه القتل وأنا أُفضّل أن أمارس الحب العذري معك من بعيد يا دمشق.
في الغربة رسمتك كما عرفتك، ومشيت في شوارعك الغابرة ولم أعد أعرف كيف أسافر ثانية منك، فقد صرت أسيرة «الخارطة» اللامنسية.
وأنا في الوطن كنت أبكي شوقاً للرحيل إلى المنفى.
وها أنا اليوم أبكي لأنني حققت أحلامي.

* * *

كل كتاب من كتبي يترجمونه لي في الغربة، أحمله راكضة إلى

حضن دمشق كطفل منهوم بالجوع إلى الحنان يحاول لفت انتباه أمه إليه أكثر!

غزوت لغات أخرى وعيني على دمشق، مثل ولد شاطر يحاول أن يبهر أستاذه في المدرسة!

قبل أن يموت الرسّام الفرنسي دافيد في منفاه البلجيكي أوصاهم بدفن قلبه في باريس وجسده في المنفى. وحين غادر شوبان وطنه بولونيا إلى باريس حمل معه حفنة من تراب بلده أوصاهم بدفنها معه في باريس.

لن أكتب في وصيتي ـ كما فعل الرسام دافيد ـ وأقول: ادفنوا قلبي في دمشق وجسدي في باريس. فقد ظل قلبي مختبئاً طوال سنوات الغربة في تراب ياسمينة بيتنا العتيق في ساحة النجمة. ولم يغادر دمشق يوماً ليعود إليها..

ولم أحمل معي حفنة من تراب وطني كشوبان لدفنها معي في المنفى. فجسدي نفسه سيستحيل حفنة من تراب سورية أينما دفنوه.

* * *

في الليلة الماضية،

قالت لي ذاكرتي: ارسمي لي خروفاً. فرسمت لها مدينة اسمها دمشق. لم أرسمها طالعة من مرايا الماضي وصناديق الحنين. بل رسمت شهوة مستقبلي معها لا ماضيَّ وحده!

في الليلة الماضية، رسمت شرفتي العتيقة في ساحة النجمة، ووقفت عليها أمشط شعري.

لم تمرّ مواكب الماضي أمام عيني، ولم أنتحب بل ابتهجت إذ

شاهدت تحت شرفتي الجيل النضر الذي ولد خلال غيبتي،
والجيل الذي سيولد بعد أن أموت!
اهطلي يا دمشق، وسأصير تراباً!

★ ★ ★

ما الذي لا أفعله،
لمن يعطيني بطاقة دخول عتيقة إلى «سينما الفردوس» في دمشق،
تعود بتاريخها إلى عام ١٩٦٣، مساء الخميس الربيعي الأول،
حفلة الساعة السادسة، وتحمل رقم مقعد جلست فيه ليلتها إلى
يمين أبي؟
ما الذي لا أفعله،
لمن يسقيني إكسيراً يعيدني لأعيش تلك الثانية الأليفة ولو في
ومضة عين؟
ما الذي لا أفعله،
لمن يمنحني لحظة ألفة أنيسة مشابهة لأسبح في النهر مرتين؟

★ ★ ★

أحتسي الأغاني القديمة من كؤوس الذاكرة في الحانة البعيدة.
أحتسي الميجانا والعتابا.
أدمدم بها سراً في صالة الأوبرا بباريس رغماً عن أنف «بافاروتي»
وحنجرته المدهشة.
أدور في متاحف أمستردام ونيويورك ولندن،
وأنا ما أزال أعلّق على جدران قلبي لوحات بريشة «النيناوي»،
رسم فيها عنترة بشاربَي جدي!

★ ★ ★

بهدوء، أترك شفرة الذكريات تقطع شرياني.
أترك دمي يهطل على الورقة قطرة قطرة، حرفاً حرفاً،
وردة وردة جورية، وجهاً وجهاً..
وجوه الذين عرفتهم، والذين سأعرفهم..
أقود حملة الغربة، وعيني على الوطن..
مثل عاشقة تريد استفزاز حبيبها العسير!

★ ★ ★

حين عشت في دمشق لم أرها جيداً، كنت كمن يلصق وجهه بمرآة فلا يرى شيئاً.
واليوم، أراها من بعيد بوضوح، بحلوها ومرّها.
فهل عين الحلم أكثر صحواً من عين الصحو؟
حين أعود إلى دمشق، سأخلع قميص العواصف والأمطار والصواعق وأرتدي ثوب الشمس..
وسيكون بوسعي أن أرى سماءً مرصعةً بالنجوم حتى آخر الأزلية واللانهايات..
سأتعلم من جديد كيف يتهجّى قلبي اسم الله في المدى.
كيف أصلي بلا صوت،
وكيف أنام بلا كوابيس..

★ ★ ★

تسألني: حسناً، بعد ذلك كله، لماذا لا تعودين غداً؟ لا أعود لأنني جبانة في ملكوت الحب. لا أعود لأنني خائفة. ما الحب إلا للحبيب الأول. الوطن. لكنني خائفة. أمام الحب الكبير أنا ملكة الجبناء. وليس بمقدوري أن أخسر دمشق مرتين! كأنني

أريد أن أظل بعيدة كي تظل دمشق تحبني، مثل عاشقة لا تجرؤ على لقاء حبيبها كي لا يخيب أمله فيها. فأنا امرأة لا تصلح لغير الكتابة، وأخاف ملامسة حبي على غير جسر حرفي.. وأترك جبران خليل جبران يُعبِّر عن نفسه وعني حين كتب إلى أحد أصدقائه يقول: «تسألني يا منصور إذا كنت أودّ العودة إلى لبنان؟ طبعاً أريد أن أعود إلى موطن حداثتي. إلى مهبط الوحي. إلى ضفاف الوادي الذي منه تغذّت روحي. نعم، أود أن أعود إلى لبنان، إلى بشرّي. ولكن، يا منصور، إذا عدت إلى لبنان، إلى بشرّي، هل يبقى الناس هناك طويلاً على احترامي؟ أم أنه لن يمضي وقت طويل على بقائي بينهم حتى يبدأ يهزأ مني أقرب الناس إليَّ؟ لذلك يا منصور أؤثر البقاء بعيداً. أحب لبنان ولبنان يحبني»...

ما أجبن جبران أمام حبه الكبير: لبنان... وما أصدق برحه..

وها أنا أدخل بكل فخر في سلك العشّاق الجبناء، وأرتجف خوفاً كقط صغير أمام حبي الكبير: دمشق...

فهل أجرؤ على العودة؟

باريس، ٤/ ٤/ ١٩٩٣

رسالة الحب / الكراهية

أعلنت ليلى الأخيلية أنها لم تحب قيس يوماً!
هو يأتي طلباً للنار، وهي ترغب في الرحيل،
لاكتشاف الجانب الثاني للقمر..
أعلنت شهرزاد أنها سئمت ذلك المختلّ المهذار شهريار،
فأودَعَتْه في مستشفى الأمراض العقلية
وتركته على أريكة طبيبه النفسي يحصي شهيداته، وعقده النفسية
وجلست تكتب الروايات كما يحلو لها،
دون أن تسكت حين يطلع الصباح..
شهرزاد، ذبحت الديك الذي كان يصيح لتسكت!
ذبحت السيّاف الذي له هو أيضاً وجه شهريار!
عَزَّة قالت لـ «كُثيِّر» إنها لا تُحب أشعاره
وانتسبت إلى كلية الطب بعيداً عن ثرثرته!
عبلة قصّت شاربَيْ عنترة حين جاء يقصّ أظافرها،
ويرغمها على أن تكون شبيهة بصورتها في أشعاره!
الخنساء تعبت من رثاء صخر عصوراً،
وها هي تكتب قصائد الغزل في شبّان القبيلة!
ولاّدة بنت المستكفي هجرت ابن زيدون، وانتقلت
من البكاء على صدر الحبيب إلى البكاء على مصير الوطن!..

كليوباترة أعلنت أنها لم تكن تنوي الانتحار،
لكنها أخطأت بين ذكورها وأفاعيها!..
و«شجرة الدر» ندمت لأنها قتلت زوجاً
كان قد مات من زمان!
فكيف يدهشك أن أقول لك وداعاً
وأذهب في رحلة حول العالم ـ الذي لم تعد محوره ـ
كمن يطبق الباب خلفه بهدوء
ويستنشق الفضاء، في نزهة على خط الأفق؟

١٩٩٢/٨/٢١

رسالة منقوشة كوشم

إنها الواحدة بعد منتصف العاصفة،
وأنا أكتب لك جرحي
من الدور الخامس عشر للّيل
خلف نافذة المطر،
وذكراك تجلدني بلا توقف.
دوماً أعود إلى حبك،
كناسك يعود كل ليلة لينام في تابوته!
هل ينتهي الماضي حقاً أم انه يتابع حياته داخل رؤوسنا،
يبحر من خلجان الذكريات إلى جزر القلب؟
كطفل يركض لاهثاً بعدما شاهد والده يرتكب جريمة قتل،
هكذا صارت كلماتي تهرب مني،
تختبىء بعيداً عن مرمى أصابعي مذ كدنا نقترف الفراق.
حبك بحر هائج، واللغة قارب نجاة.
حبك عاصفة،
واللغة عباءة ألفها حولي، حين تطالع البروق دفاتر قلبي،
تقلب صفحاته بأصابع الصواعق.
حبك جنوني،
ركضي المتوحش إلى موتي بك،

أيها الغجري الذي شعره الريح وحزنه المطر،
صدقه الجنون،
أشواقه ألغام بحرية.
اللغة صحوي..
وحبك موتي اليومي منذ مئات السنين،
منذ لامستني لعنة حبك ودمغتني بحديدها الكاوي،
خلَّفتْ اسمك وشماً تحت جلدي.
واللغة خلاصي..
حبك أهوالي التي لا يتسع لها فضاء.
واللغة مظلة أقفز بها بسلام إلى جزر النسيان..
وأنا أكتب لأهرب منك، ولكن إليك!

١٩٩٣/١٠/٢٩

رسالة من ياسمينة دمشقية

حين يهطل المطر على حين غرة، أذكرك.
هكذا تسللت إلى حياتي ذات مساء كعصفور مذعور.
وبينما كنت أداوي جناحه الجريح
كان يتأهب ليطير..
وها أنا وحيدة في الخواء،
مع ذكرى عصفور حلّق بعيداً تحت المطر.
أتساءل: حتامَ يتنزه حبك فوق أشلاء نومي؟
حتامَ نتستر على جرحنا ونجامل فراقنا؟
أمشي في دروب لا تبالي..
أركبُ قطارات لا تبالي..
مطارات، محطات، والوجوه لا تبالي..
أسقط ميتة على الرصيف
ويتدفق الدم من فمي،
أتأمل العابرين بعينين مفتوحتين للتوسل.
يتقدم حلّاق، يتحسس شعري ثم يقصّه ويبيعه لعابرة.
يمر بي رسام،
يفتح علبة ألوانه ويجلس مقابلي ليرسمني وأنا أنزف.
يمرّ بي جرّاح، فيخرج مشرطه

ويسرق أحد أعضائي ليزرعه لمريضه الثري.
يمر بي بائع التوابيت فيحاول أن يبيعني كفناً.
تمر بي قوافل سيدات الجمعيات الخيرية والعشّاق،
والخارجون من أعمالهم، ورجال الشرطة والمتسكعون،
والسياح، والباعة المتجولون.
لا أحد يلحظ موتي أو يسمع صوتي.
يمضون إلى أنفاقهم، ليستقلوا مترو الموت اليومي
ثم يهبط ليل شاسع،
لا يبالي بياسمينة دمشقية تحتضر على إسفلت سوهو!
أيها الشقي،
يتبعني حبك كالضوء متسللاً تحت خواتمي،
وداخل شعري حين أحلّ عقدته،
وداخل ذاكرتي حين أتعرّى منها، لأستقبل نوماً عصياً،
كعاشق عسير المراس.
حين أنجو منك إلى النوم،
أجدك في براري الحلم بانتظاري،
لأتابع موتي بك، واحتضاري السيزيفي..
فأين المفر، وعيناك من أمامي، والذاكرة من ورائي؟

١٩٩٣/١٠/٢٩

رسالة من عاشقة عربية

تسألني عمن عرفت قبلك؟
ها أنت ترتدي ذاكرتي،
كقميص خشن مطرز بالأشواك،
تركض به بعيداً لتتعذب..
لن أقف أمامك مذنبة مثل منبّه رنّ قبل الأوان!
لن أهرب من الصدق إلى الشِعر!
نعم أحببت قبلك،
وسأحب بعدك،
ذلك لا ينفي أنني أحبك.

كلنا عاشقات نحن معشر النساء العربيات،
مشتعلات بالوجد والأشواق المستحيلة،
والجنون في ليالي القحط.. نغازل رجالاً من ورق ودخان،
وموجات صوتية وحضور أثيري تتلفزه شاشات الأوهام العذبة.
كلنا نتأجج شوقاً إلى ما لا ندريه،
حتى قبل أن تلمسنا العصا السحرية للمراهقة.
كأن عمرنا رحلة حب بين لحظة ولادتنا ولحظة وَأدِنا.
ثمة نساء يفضّلن ورقة الكتمان،
أُخريات يلعبن ورقة الصدق ويشقين بها بسعادة.

لأنني تعبت من فروض الزيف، أُعلن لك وجهي خارج الأقنعة،
أطلق سراح صوتي من كمامة الجدّات:
عاشقة قبلك وبعدك، ومجنونة بك في آن!

رسالة إلى من يكتب الخواء

يا لرسائلك المطولة القاحلة،
لماذا لا تكتب أقلَّ، لتقول أكثر؟
لماذا تثرثر كي لا تقول شيئاً حقيقياً؟
ولماذا لا تهجرني، وتكفّ عن الكتابة لي
بصمت يشبه صرخة انفجار القلب؟

١٩٩٥/١٢/٢٢

رسالة إلى الزمن

بالحب وحده أتحداك بين آن وآخر، فتنتصر وتهزم الحب أمامك أيها الزمن.

ها أنا أخط رسالتي إليك لأعترف لك بأنك سلطان العالم. تحيا لتميت الأشياء كلها بإتقان، تعلّمنا، وحين نستوعب الدرس تقتلنا..

في ضوئك يبدو العمالقة أقزاماً أو العكس..

ها أنت تخلط الأوراق كلها.

وأعي أنني طالما حاربت أشخاصاً ينتمي قلبي إليهم،

وصادقت أشخاصاً أمقتهم!

لقد بدأت أستوعب جيداً دروسك كلها،

فهل يعني ذلك انه جاء دورك لقتلي؟

ولماذا تقدّم الموت لتلامذتك كلهم كهدية في «حفلة التخرُّج»؟

١٩٩٥/١٢/٢٢

رسالة إلى الطين والغمام

حين أنام، أكون قد استيقظت جيداً
لأركض في دهاليز كوابيسي، إلى أوطان أحبّها...
وقد خلعت أقنعتي. أضرمت النار في قفازاتي البيض، وجواربي المذهّبة نصف الشفّافة، وحذائي الأنيق... وعدت طفلة عارية القدمين على أبواب الحنين، تمضي إلى الغابة بجعبة مليئة بالفرح وإشارات الاستفهام..
تريد أن تراقص الفراشات، تمتطي البجع، تقفز مع ضفادع ملونة وجنادب حمر الأجنحة، وسناجيب لطيفة صغيرة
وتريد أن تسأل الذئب،
هل أحبَّ جدتها ذات يوم حباً مريراً حتى الالتهام؟
أريد أن أغادر صحوي اللعين المروَّض
كي أدخل في براءة صدقي ودهشتي...
تعيس أنت أيها الشقي لأن شيئاً لا يشقيك..
تهرول من مولدك إلى نومك إلى مرضك إلى موتك إلى حفل تأبينك، فإلى نجاحك دون أن تحين منك التفاتة إلى سلالم الضوء والظلام المخاتلة، ومروحة المتناقضات الملونة المفروشة على طول الأفق. براعم الغروب الوردية، وعد بحكايا الليل الغامضة، ولا تراها..

ولا تنصت إلى صوت تنفس برعم أو احتضار نجمة . .
ولا تسمع بكاء الحيرة المرير في قاع روحك . .
والصرخات المكتومة للمجنون الذي قيدته بإتقان في سراديب أعماقك . .
وأشواق بومتك للطيران الليلي إلى اللانهايات . . .
مثلك أنا، كائن من طين، لكنني أرفض الاستسلام لقدر الخزف فوق ملاءات المخمل والحرير.
بعد تطويع النار . . ترانا نفلح في اختراع مصير آخر لطيننا، لنرحل معاً فوق قارات الغيوم اللامتناهية، وننسى أرجلنا الغارقة في الطين، يا رجلاً من غمام وخرافة وطين؟
منذ اللحظة الأولى حين أحببتك،
وأنا أحاول أن أتعلّم لغات صمتك،
لأخاطبك بلا صوت . . فهل تسمعني؟
أيها الشقي، ألا نستطيع أن نتكاره بمحبة؟

١٩٩٥/١٢/٢٢

رسالة إمرأة صارت غيمة

ها هي ذاكرتي تستعيد ذاكرتها لحظة تحلق الطائرة بي صوب نيويورك.
قارتان بيني وبينك لكنني أخاف،
لأنني أعرف أن حضورك اللامرئي
سيحتلّ المقعد الفارغ إلى جواري.
لا أريد أن أظل أحبك.
لا أريد أن أحدّق بعد اليوم داخل مرآتي فأرى وجهك.
لا أريد أن أقف فوق الميزان في الصيدلية فتشير الإبرة إلى وزنك.
لا أريد أن يناديني الناس باسمي فلا أجيب،
وألتفت حين يهمسون باسمك.
ولا أن تقرأه شرطة المطارات فوق شفتيّ وعلى حقائب عمري،
لا أريد أن تحولني ثانية من امرأة إلى غيمة.
لا أريد أن أجد نفسي من جديد قنديل بحر تائهاً في أمواج محيطاتك.
لا أريد أن تغسل يديك بدمي بعد اليوم
وتجففهما بمنشفة النسيان.
لا أريد أن أحبك ولا أن أنساك،
أريد أن أظل أتأرجح على حافة ذلك الوجع الغامض،

الملقب حباً، كي أظل أكتبك حتى النفس الأخير لمحبرتي . .
وبين آن وآخر . .
ضمّني إلى جناحيك وحلّق بي،
لنحتفي بأمسيات كنت أزورك فيها شرنقة،
وأغادرك فجراً، فراشة!

١٩٩٥/٦/١٥

رسالة من بئر حبك

تحلّق بي الطائرة فوق لوس انجليس وأسقط في بئرك،
ذاكرتي «حرف جر» إليك!
عبر الغيوم أراه، وجهك اللامنسي زين الشباب.
واعية أحلم لكنني أحلم! (الحلم زئبق، يتلاشى هارباً من أصابعي
لحظة اليقظة مثل بيت من الشعر أجمل من أن تكتبه ريشة!).
هل يخشى الحلم على حريته من أقفاص الوعي،
فيطلق ساقي الطفولة هارباً
كي ينجو بجلده من غرور العقل المتكبّر؟
لماذا الحلم حرف جر إلى حبك؟
ألأنه لحظة صدق بلا كبرياء متعجرفة ولا أقنعة؟
ألأنه غجري في بساتين الصبّار والأزهار البرية،
واليقظة صاحبة أطيان وعقارات ومصالح؟
هل الحلم حرف جر إلى الهجر الجميل،
لأن الصيغ الاجتماعية توابيت الحب؟
احضر، ولا تأتِ،
كي تظل لعنة مباركة في سماواتي،
قمراً أسود بالغ الضياء، تتفتح على شطآني، تحت إشعاعه،
محارات النسيان المنغلقة على ذاتها.

١٣/٦/١٩٩٥

رسالة من طائرة فلوريدا

هل تذكر كيف كنا نمشي فوق رؤوس أشجار الصنوبر والتلال،
ونتعثر بالنجوم؟
وكيف كنا نمد أيدينا إلى القمر ونلاطفه كقط؟
وكيف كنا نغمس أقلامنا بالغيوم
ونكتب بحبرها الشفاف على صفحة الأُفق،
حتى فجر الأوراق الساخنة؟
هل تذكر كيف كنا ننفض التثاؤب عن وجه المدينة
قبل أن نذهب إلى النوم والشمس تقهقه؟
تصير يدك بجعة،
وأنت تمدها صوبي لتحتوي وجهي بكفك
على ارتفاع ثلاثين ألف قدم من الذكريات!

١٩٩٥/٦/١

رسالة إلى الرجل المستحيل

ابقَ كما أنت، لامبالياً،
كي اظل أحبك..
إذا أحببتني، سأهرب منك،
فأنا أكره الحب المتبادل،
لأنه لا ينجب غير الأطفال والولائم والصداع،
وسهرات التثاؤب الاجتماعية، والتكاذب المرائي.
ولعب التامبولا والكاناستا..
والفواتير و «الفاليوم»، ودوار الرتابة..
ابقَ كما أنت، لامبالياً ونائياً،
كحصان بري خرافي،
لتشعل أشواق حرفي إلى المستحيل..
ودع عينيك الساهمتين ترجعان بي
إلى ذكرى حبنا البريء الغابر اللامكتمل..
تطلقانني في مدن الحيرة والغموض وشوارع التنهد..
على حدود قارات الأسرار والرعشات الكونية.
لا تكن لي، كي لا ننتهي شقاحين
يتواصلان في مستنقع التفاصيل اليومية،
ونقيق الشجار الأليف..

ابقَ نائياً،
حباً مستحيلاً يتضوّع عطراً سرياً،
كي أظل متعطشة للرحيل بحرفي
في مدارات الكواكب المجهولة للمشاعر،
حيث مقالع أبجدية الدهشة،
والفجر الشاحب للأسرار..
لا تستجبْ لتوسُّل نظراتي، ومخابراتي الهاتفية.. ورسائلي..
فأنا أصاب بالنعاس
حين أقضم التفاحة!
فدعني متأجّجة بأشواقي المستحيلة،
أحوم حول الشجرة المحرّمة،
مستغرقة في استجواب الأفعى
عن كنه الجنون العذب..
ابقَ في حياتي كتاباً جديداً لا يُقرأ،
ولن أقصّ أوراقه المتلاصقة في أي يوم..
ليظل حبك صرخة تخترقني بلا ثرثرة،
وبلا صوت،
كصرخات التماثيل في مدن الماضي الخالدة!
وإذا أحببتني ذات يوم من جديد،
سأطالبك بأن تخونني كي لا أهجرك..
لتظل الرجل المستحيل والحب اللامكتمل،
ولتظل أبجديتي تنزف اشتعالها
بعيداً عن الأفراح الكئيبة في القن!

١٩٩١/٥/١٠

رسالة من رتيلاء في صندوقي البريدي

من الذي كتب لي كراهيته،
بسيقان الرتيلاء البنيّة الداكنة،
في ذلك الصباح الباريسي الحزين
حين فتحت صندوقي البريدي
أتسوّل لحظة ود أبجدية،
فوجدت رتيلاء عدوانية مكهربة بسيالات اللعنة؟!
ناديت حارس ناطحة السحاب،
لا ليقتلها كما فعل،
بل لأصدق انني لم أنتقل من مدينة الغربة
إلى ممالك الهذيان المطرّزة بالعناكب والرُتَيلاوات والهواجس الحيّة..
وكان ذلك الصباح الباريسي بارداً،
ينسكب على طرف قلبي قطرةً قطرةً كالحامض الكاوي..
ويمشي ببطء فوق جرحي كنصل سكين.
لماذا لم أجد في صندوقي البريدي،
وردةً من قريتي، أو فراشة أو نجمة؟
أكان ذلك أكثر غرابة من حضور الرتيلاء العدواني،
الاستفزازي كرسالة من ملك الموت؟

أهذه الرتيلاء سفير من ممالك الأخشاب المتآكلة
والمراكب الغارقة التي لفظها البحر منذ عصور،
وصناديق الرسائل والذكريات المكفّنة بـ «النفتالين»
والرخام الهزلي في المقابر؟..
لماذا لم أجد في صندوقي البريدي،
غير بعض الفواتير والإعلانات و «الجانك ميل»،
تزنّرها رتيلاء تشبه مطاط نقود المرابين؟
أهذه برقية استدعاء إلى بلاط الظلمة،
جمجمة محاطة بعظامها
في وقفة تقليدية لصورة تذكارية
تقول لي في ومضة خاطفة:
صباح الموت يا سيّدتي،
وتترقب نزهتها داخل ثقوب جمجمتي؟
هل هذه الرتيلاء
مجرد طابع بريدي على رسالة من السيد الموت؟
أم أنها سفير يحمل وسام التقزز من دنيا اللادنيا؟
وقّعت للرتيلاء وصل استلام الرسالة،
في ذلك الصباح الربيعي البارد..
وحين شاهدت براعم العام الماضي،
وقد رجعت جديدة ونضرة، همس لها قلبي:
ترى هل موتي أنا أيضاً،
عتبة العودة إلى غصن آخر في شجرة جديدة؟

٩/ ٥/ ١٩٩١

رسالة متناقضة

من قاع الليل أناديك بصرخة بدائية،
كرياح المغاور المسكونة بالعصور الغابرة..
أركض عبر السنوات الضوئية للفراق
شهاباً لا ينطفىء ولا يعرف له مداراً..
محصّنة بوحدتي، أسامر عزلتي العذبة..
وفي ليالي جنون الروح أناديك،
وأخطّ أشواقي سطوراً على دخان قطار..
أناديك، فلا تجبني،
كي لا نلتهب معاً حتى سأم الانطفاء،
ونقلب الصفحة المشتركة،
ويقفز كل منا وحيداً إلى أول السطر!

١٩٩١/٥/٧

رسالة من بومة تغرّد

حينما أكتب عنك، تصير الورقة بحراً،
وحروفي نوارس تحلّق فوق صفحة الماء
وتطارح الأمواج حبها،
ويصير لقلمي صوت حفيف الأجنحة. . .
. . حينما أكتب عنك، أتحوّل من بومة إلى هزار. .
وحين تطربني، أتأمل نفسي في المرآة،
فأتحوّل إلى طاووس. . .
وحين يهب ربيع أنفاسك عبر الهاتف،
أحلّق صوبك سنونوة مشتاقة. .
وحين تخونني،
أصير نعامةً تدفن رأسها في الرمال. .
وحين نتشاجر، أصير خفاشاً،
يرى الدنيا رأساً على عقب.
تستطيع يا سيدي أن تصنع مني ما تشاء. .
باستثناء ببغاء!

١٩٩٠/٦/١

رسالة من سائحة على قبضة يد

استيقظ حبنا اليوم مصاباً بالصداع،
وشكى من الأرق والضجر،
وفقدان الذاكرة وقصر البصر..
وقال إنه ذاهب إلى الأطباء واحداً تلو الآخر..
فنصحته بالذهاب إلى طبيب واحد يشفيه
اسمه الرحيل..
من الذي يطارد حباً كساعة سويسرية،
لا يتطرق إليه الخلل ومتع الشجار؟
من يطارد حباً يجهل الجنون والملل؟
لا أريد أن أعود من حيث جئت بأمان...
أريد أن أظل هكذا، مشرّدة داخل دورتك الدموية...
وسائحة على قبضة يدك!.. وأميّة، تحاول عبثاً
قراءة خطوط كفك..
أريد أن أتنفس صهيلك،
حتى إغماء الصحو..
أصرخ للحلم خذني،
كي تستيقظ مراكبي فجراً داخل مياهك الاقليمية...
أركض داخل الزمن، في خببٍ ليلي مجنون،

أطارد عبثاً زئبق الحب ،
فتمد أصحو كما من زمان، داخل تنهّدك . . .
أمتطي صهوة الريح والمسافات،
وأنوس بين العصيان والنسيان، وأظل أحبك .
آه، كيف استحمّ في نهر حبك مرتين؟

١٩٩٠/٦/٣

رسالة من سنونوة

أحب أسلافي، لكنني لا أريد
أن أرتدي جبّة جدي، وأختبىء داخل كمه،
وأنام في جيوبه.
أريد أن أرتدي حياتي
كما أحبها، وان أفصّل ثوب زمني على مقاسي.
تلك الفؤوس كلها، التي تهدد رأسي،
عاجزة عن محو إشارات استفهام
ترتسم على جبيني كلما مررت بالمقبرة
التي يحاولون إرغامي
على التغني بنضارتها المؤبّدة!
ولدت عصفوراً..
(لا يدري لماذا يبدو من الخارج امرأةً)،
عصفوراً قضى عمره وهو يتشاجر مع الأقفاص،
ليحلّق...
أأنا امرأة،
أم ذلك الطائر الآتي من سورية
تشعله شهيته إلى الطيران اللامتناهي صوب المستحيل؟
أأنا امرأة،

أم تحوّلات الفينيق بين الرماد والتحليق؟
لا أستطيع الإقامة في ممالك الطاعة
تحت رايات «نعم»،
ولا أستطيع الانتماء إلى غربتي..
لا بد لي من غصن،
كي لا تحترق أجنحتي.. وأسقط
في تلك البئر المروّعة الخرافية بلا قاع لظلمتها..
وأسقط.. وأسقط.. و.. أ.. س.. ق.. ط..
أ..
س..
ق..
ط..
وحين أضع رأسي على ركبة التايمز (أو السين)
لأنام، يركلني غاضباً ويزجرني: هل توهمتِني بردى
أو الفرات أو النيل؟ لا تبحثي عن أب مستعار..
وها أنا قارب طردته المرافىء كلها،
يعلن أن الحرية ضوء بجناحين
وهو من رعايا الشمس..
ها أنا أدفن وجهي في وسادة الليل،
وأهمس باسم الحرية كمن يتلو صلاته قبل النوم..
وأهمس باسم دمشق كمن ينادي حبيبة.

١٩٩٠/٦/١

رسالة من هاملت

لم يعرف أحد يوماً أن هاملت كان امرأة متنكرة،
عاشقة لرجل خطر مثلك.
أن أكون حبيبتك أو لا أكون،
تلك هي المسألة!
أن أقترب من المصباح حتى الالتهاب،
أو أظل في أمان «الكوما»،
تلك هي المسألة!
. . . وحتى اليوم لا أدري،
حتامَ أرتدي قناع هاملت،
وحتامَ أحار بين الموت أو الفرار،
ما دام الفرار موتاً أيضاً؟!
كان عليَّ ذات يوم أن أفلت مما تدعوه «حبنا» . .
تطلق لقب «حبيبتي» على كل ما تنوي إضرام النيران فيه،
وأنت تعزف على قيثارة الضجر كأي نيرون صغير.
أتدلّى من مركبة أيامك،
تسحلني الطرقات،
مجنونة أنا،
لا تستطيع أن تصعد إلى القطار،

ولا تريد الهبوط،
لا تقدر على الالتصاق بزمنك ولا تريد مغادرته!
لحبك طعم الغرق،
وجع أخرس، فقاعاته الروح.

١٩٩٦/٣/٨

رسالة إلى جسد

آه جسدك!
الجسد شاهد عيان على حضور الروح!
عَبْرَ جسدك المائي المتدفق جنوناً حاراً،
لمحت هبوب روحك صرب المستحيل،
غباراً مضيئاً كتنهّد العاشق.
دوماً أعود إلى الكتابة ذليلة ومكسورة،
كامرأة تعود دائماً إلى حبيبها الأول الذي هجرته
لا أريد أن أنسى كذبتك التاريخية التقليدية يوم قلت لي إنني «امرأتك الأخيرة»، وصدّقت ذلك كما تفعل في هذه اللحظة بالذات ملايين الحمقاوات في كوكبنا، وهن ينصتن ويصدقن الكذبة ذاتها وهي تُقال بصوت يتسلّق الغيوم.
أريد أن أنسى تاريخي مع حبال مشانقك المجدولة من ياسمين الأمسيات!
أريد أن أنسى محاولتي الذليلة المرائية
للتعايش السلمي مع بقية نساء حريمك!
في غرف الهذيان المبطنة بالمطاط كاتم الأصوات،
أدخل في قميص المجانين،
أعقد ذراعيّ إلى الخلف كي لا أسطّر شيئاً،
لكنني أظل أتلو على مسامع الرماد ذكرياتنا معاً،

حيث كنّا عصفورين في غرناطة،
حلقا منذ قرون جنباً إلى جنب
وقد شبّت النار في أجنحتهما!
بالندم أعاشر رسالتك الأولى..
قبلتك الأولى..
ذكراك الأولى..
وأعترف أنني كائن غريب..
فمنذ امتلاء حقول قلبي بالكراهية،
اخترعت الحب للآخرين على الورقة!
تأتيني من تلك الغابات الغامضة
وعلى وجهك الأقنعة كلها،
أقنعة الموت والحياة والسحر والخصب..
ألمح قلبك عارياً،
كعصفور نقر البيضة من الداخل حتى انكسرت وغادرها إلى الليل ليطير حياته كلها في أرض المغامرة والثلج دون أن تحين منه التفاتة إلى الوراء صوب التي احتضنته بالدفء..
يومَ فتحتَ فمك وقلت لي وداعاً،
شعرت أنني أحدّق في قبر مفتوح ينتظرني!

١٩٩٦/٣/٥

رسالة الحب الشرس

لا أعرف طعم الانتحاب على المرضى بالوهم الشعري، وزهور الظلال، والفاشلين على تخوم الجسد والفرح.
لا أنتمي إلى قافلة الحزينات الرومانسيات العاشقات بالوهم، والأمسيات الباكية على أكتاف الرسائل والأكفان البيض.
فلا تسقني الحزن في كأس الليالي الشتائية.
لست من رعايا الاحتضار الرمادي حتى يتنهد الفجر أنفاسه الشاحبة على إيقاع البكاء المرّ العذب!
من الجنون استعرت أجنحتي،
من الحزن نبضات قلبي،
لذا أحلّق دائماً إلى أرض الأوهام الحقيقية..
حيث الأكاذيب أكثر صدقاً من الحقائق الهلامية.
أحار أحياناً،
أيّ أكاذيبك أصدّق؟
فاسقني حبك كالسم بلا رحمة.
اغرس رمحك الملوّن في عنقي كمصارع،
واصرخ ملء شرايينك: «أوليه!»..
لا تباركني بفتور،
اقتلني بحرارة

وفاءً للحياة،
بدلاً من أن نذوي معاً ببطء،
وفاءً للموت!
ها أنا أفتح صندوق الآثام،
لأستعيد حصتي من النجوم والأزهار والفراشات والأكاذيب،
وأمضي هاربة من ميتم النساء اللطيفات الدامعات..
إلى حيث أصنع فصولي وأختار رياحي وغاباتي وصقوري.
وأكسر إبرة بوصلتي التي لم تكن لتشير إلا صوبك!

١٩٩٦/٣/٦

رسالة من مدينة الأحزان البضّة

في الغربة، تعاملني مطارق الزمن كمسمار صدىء، وتدقني في أخشاب غابات لم أخترها. أفتقد قمراً دافئاً كان يقطن نخلة، وأنا نائمة على سطح البيت الطيني القروي. تعبت من قمر الغربة المكهرب وهو يشحذ أظافره السكاكين ويركض فوق ثلوج أغمي عليها برداً، ويُغْوِلُ ضوءاً ساطعاً مثل مصباح فوق براد الجثث.. ولكل جثة رقمها.. أريد أن أمزق بطاقتي، وأمسح من ذاكرتي رقمي، وأرحل في سفينة فضاء إلى الماضي.. منذ اقترفنا الفراق، يا مدن الجنون، وأنا وحيدة ومثقلة بالخواء مثل بطارية مستنفدة، أو بطاقة طائرة تمّ استعمالها، مرمية في سلة مهملات الزمن.. ولكنني تعبت من حرائق الدم المجنون، واستسلمت لمدينة الأحزان البضّة..

١٩٩١/٣/١٤

رسالة الوفاء للياسمين

علميني كيف يعود العطر إلى وردته الأم لأعود إليكِ .
علميني كيف يعود الرماد جمراً ،
والأنهار نبعاً ،
والبروق غيوماً ،
وكيف ترجع أوراق الخريف إلى أغصانها ثانيةً ،
لأعود إليكِ يا دمشق .
حينما أسمع صوتك ،
يخيل إليّ أن بوسعي الالتهاب بك مرتين ؛
والموت على ركبة حقولك عشرات المرات . . .
كلُّ ما يعذّبني ، غير موجود .
تعذّبني الشوارع التي لم تعد هناك ،
الوجوه التي ارتدت وجوهاً أخرى ،
حكايا الحبّ التي لم أعرف كيف أعيشها ،
ولم أنجح في حفظها محنطةً داخل صناديق الذاكرة الموصدة ،
فظلّت نصف حيّة تهيم في قاع روحي ،
كالأشباح الغامضة المجهولة .
عبثاً أحاول أن أنسى بإتقان ،
أو أتذكّر بإتقان كل ما كان . .

هل أحببتُ حقاً ذلك الرجل ذات مرة؟ هل افتقدته؟ هل كدت أنجبُ أطفاله؟
تعذّبني تلك التوابيت التي دفنتها مرة في احتفال كبير،
وأنا أظن واهمةً أن كلَّ ما فيها مات.
ولن أدري أبداً أكان حياً ذلك المدفون فيها أم ميتاً، لأنني أحكمت إغلاقها وانتهى الأمر ذات دهر.
كل ما يعذّبني له جسد الضباب،
يخترقه الرصاص الذي أطلقه عليه،
ولا تنفع معه التعاويذ.
كل ما يعذّبني غائب على حافة الحضور،
وحقيقي على حافة الوهم،
غامض على أطراف الجرح المجهول العميق...
جرح ابتدعته لنفسي بخنجر،
حفرت عليه الأحرف الأولى من اسمي،
كما حفرتها على أشجار اللوز والتين في الزمن الغابر.
تطالعني وجوه أحباب الماضي وجهاً وجهاً،
راكضة بسرعة كصفحات دفتر تقلّبه الريح..
لن أدع النار تشبُّ في أطرافه!

١٩٩١/٣/١٥

رسالة تكتب نفسها

كفاً بعد آخر قرأتك
وشماً بعد آخر أحببتك
مساماً بعد آخر نسيتك،
وقلبي شجرة نقش غريب عليها اسمه ومضى،
واهماً أنه امتلكها حتى يعود!
جاهلاً أنها امرأة الرياح والزلازل والصواعق،
وليست عصفورة خشبية في ساعة سويسرية
تقول «كوكو» كلما انفتح الباب في الوقت المحدّد...
«كوكو».. لست امرأة «الكوكو» يا صديقي،
أنا امرأة الدهشة،
أخشاب المراكب المبحرة إلى المجهول مملكتي،
شطآن القارات كلها شرفاتي..
أنا المصباح، ولست ظلّك!.

١٩٩٣/٧/٩

رسالة من بومة متفائلة

لستُ محارة هشّة تلفظها أيامك
على شطآن اللامبالاة، وتكفنها بالرمال كموؤودة . .
أنا من فصيلة جديدة من النساء
تتكاثر حولك ولا تلحظها، جسدها المطر وصوتها الريح،
وعبثاً تقتلها بفأس القسوة والجحود.
قلبي أنقاض تتجدد في ومضة تمرد،
طائر بحري يحلّق بعيداً عنك،
وأنت لا تزال تمارس لعبة الوقوف على الأطلال،
مؤكداً لنفسك موتي بين يدي سيّافك،
بينما أنا نورس الزرقة الطالع من رماده . .
أطالع دفاتر الحزن التي سطّرتها جدّاتي في ليل العصور
لأتعلم كيف أُروض ضعفي إليك . .
وأقرأ في كتاب الربيع
لأتعلم تسامح البراعم مع صقيع يحرقها . .
وأقرأ في كتاب البوم لأتعلم حكمته
أمام كراهية لا يدري لماذا يجابهونه بها!

* * *

أحببتك ذات يوم، استحلتُ ضوءاً

يقبّل عينيك حين تفتحهما . .
استحلت نسيماً يدغدغ ستائرك وقسمات وجهك اللامنسي . .
استحلت أكتافاً لا تريد غير حمل هوادجك . .
استحالت تراباً لترقص فوقه خيولك . .
استحلت غمداً ليضم خنجرك الذي طعنتني به فيما بعد . .
استحلت طفلة ، لكي أركض خلفك في مواكبك . .
استحلت برقاً لأقتحم نومك وألتقط صورتك . .
استحلت حجر صوّان لا يرد على ضرباتك
بغير شرر الشكر!!
وأنت تناصبني الحب على تخوم الاستخفاف والعجرفة . .
يوم غدرت بي ، صرت بومة مرحة ،
تراقص ضوء القمر في مهرجانات طيران الليل . . .
بومة متفائلة اتسعت عيناها دهشةً لكل ما شاهدته معك !

١٩٩٣/٧/٩

رسالة من راسبة في مدرسة الببغاوات

ـ ١ ـ

في أعمق أعماقي، حيث المياه داكنة وغامضة...
أعرف انك لا تزال هناك، تتحرك بهدوء سمكة دهرية...
لا شيء كالمطر يوقظ حنيني إلى حبك...
فكيف أختم ذاكرتي بالشمع الأحمر تحت هذا المطر.. المطر؟
تعبت وأنا أطوي أجسادي في حقائب السفر،
أطوي بيوتي وحيواتي وأصواتي ومحابري ووطني ودفاتر يومياتي...
تعبت وأنا أتكسر على أجنحة الطائرات...
وتركض فوقي القطارات على حديد سكك تنتحب مطراً..
تعبت من مطارات تعاملني كحقيبة ملغومة...
وقنصليات يمسك موظفوها بجواز سفري،
كما لو كان رسالة مفخخة...
تعبت والغربة لما تتعب مني..
يد الرياح تبعثر أوراقي فوق قارتين...
وتشنقني من ضفيرتي على شجرة ياسمين مقددة...

ـ ٢ ـ

يا زمان الوصل في لبنان.. الذين أكلوا تفاحك

ثم أحرقوا أشجارك يبكونك الآن. . .
قتلوك ثم قتلهم الندم. . «استضعفوك فوصفوك». . .
وحلّت عليهم وعلينا لعنة النوارس. . . والمطر. .
نضرب في الأرض، وتضربنا الأرض حيثما حللنا. .
هل بدأ موتي، يوم شاهدت ذلك الأحمق
يرفع شارة النصر فوق جثة أخيه؟
ـ «هذا شقيقك يا قابيل». . زغردَ مسعوراً: أنا المنتصر!
هل بدأ موتي، يوم تخلّوا عن الله تحت ستار «الدين»؟
لبنان، كيف أستحمُ في حبك مرتين؟
وكيف أسبح في بحرك عمرين؟
أتسلّق صهيلك في ذاكرتي حتى ذرى الشهقات. .
آه ما أعذب الموت لولا الصدى. .
ما أحلى الغربة، لولا تلك الأبواب السرية،
التي تنفتح في دهاليز القلب على غير هدى
لتدخل منها وجوهنا العتيقة في كرنفال العمر الهارب. .

ـ ٣ ـ

إلى أين أذهب بعد بيروت،
والعواصم ألغام مدفونة تحت الثلوج والغبار النووي،
والشوارع مزروعة بالفخاخ. . والمطر؟
من يقترف حماقة التنقيب عن دفء القلب
في صالات ترانزيت المطارات؟
وإلى أين أذهب،
والنوم احترف الأرق وصناعة الكوابيس؟

والحزن عنكبوت يحتل سريري في غرف الفنادق النائية،
وينتظرني بالشمبانيا المسمومة على شرفات ساحات أجهل أسماءها..
وأنا أمشي من ليل إلى ليل،
ومن موت إلى موت في حانات المطر..
أُلاطف الغرباء كل مساء كمن يدلّل جلاده..
أتقن الثرثرة باللغات الأجنبية، لكنني لن آلفها..
وما زلت أجهل كيف أقول «أحبك» بغير اللغة التي أتكلمها في الحلم والكابوس والهذيان..
إنه حكم الذاكرة المستبدّة.. وسعيدٌ هو المشرد العربي
الذي لا يغص حين يقول «أحبك» بالفرنسية والانكليزية..
سعيدٌ هو المشرد
الذي يدلّل أولاده بغير اللغة التي دلّلته بها أمه ذات يوم،
دون أن يرفّ له قلب..

ـ ٤ ـ

من يعلّمني كيف أقتلع من قلبي صنوبر بيروت
وياسمين دمشق ونخيل بغداد، لأزرع في موضعها
برج إيفل وساعة «بيغ بن»؟
حزينة أنا، لأنني أعرف أزقة سوهو وبروكلين
أكثر من أزقة «الحسين» في القاهرة..
وقدري أن أركض في حارات «مونتمارتر» و «مونبارناس»،
لا في أزقة سيدي بوسعيد وسكيكدة وأغادير وبرجا..
ثمة من سلبني الأرض بحجة الدفاع عن الوطن،

وسلبني الحرية بحجة الدفاع عن التاريخ . .
وها أنا مشردة على بوابات الرياح الخمس
لأنني رسبت في مدرسة الببغاوات . .

- ٥ -

كيف أرضى بعمر، العلاقة الجسدية الوحيدة الحميمة فيه
هي بين الضرس واللقمة، في أمسيات موت الحواس
على طول التصف والمجاعة والمقبرة؟
كيف أرضى بموت يومي في ملاجىء جرذانية . .
وبين قذيفة وأخرى تلعلع تلك الخطب العنترية . .
مدجّجة بالحكم الشعبية والأمثال وبقية عدّة البلاغة،
ليوهم الجلادون قتلاهم بأنهم منهم ولهم؟
كيف أغادر مدرسة حب الوطن،
لأنضم إلى كورس مدرسة الببغاوات؟
ها أنا أهرول من قطار ماطر إلى آخر،
مكتظة بالحب والحزن والذكريات،
مكتظة بوجوه شعب مرصود للمذابح . .
مكتظة بأحلام قبيلتي المنتشرة على مدى قارتين . .
وجرحين، وعمرين، وقناعين، وشخصيتين مشطورتين، وآلاف
الجلادين!
لن أركع لأغازل ظلي تحت المطر . .
ولن أركب أراجيح السادية والمازوخية . .
ولن أنوس بين تعذيب الذات والآخر . .
وسأظل أرحل في فضاءات الليالي مطلقة السراح،

حتى أكتشف بكاء الكبرياء المتوحد . .
على حدود الضوء . . والموت . . والحرية . .

١٩٨٨/١٠/٢١

رسالة مدائن الدم المشتعل

مناراتها من ضوء وعاج وفضة،
تعبرها بين الجنون والرهبة.
في القلب بكاء متأهب لانتحاب لا يجد صوته أبداً أمام القباب
المذهّبة المتضرّعة لرياح الهباب.
مدائن النخيل ديمومة الأشواق المستحيلة..
في الأعماق، تركض أحصنة الموج فوق رمال امبراطورية الضوء
المتأجج..
مدائن الملح المشتعل بالدم المهدور والفرح المذبوح..
مدائن مررتُ بها ذات يوم مضرّجة بالحرب،
هاربةً من موتي اليومي،
ولم أكن أدري أن جرحنا سيصير ذات يوم واحداً..
وأن الهباب الذي يغطي أهدابي
سيخطّ بأصابع اللعنة توقيعه على نوافذها المكسّرة..

★ ★ ★

في ليل المانغا والتنهّد والأنس البريء،
سقطت من يدي كرة الساحرة الشفافة،
ركضت زرقاء اليمامة على الشواطىء طرباً،

لم ترَ الهول الآتي . .
«بس يا حرب» أم «بس يا بحر»؟
حرب . . بحر . . الحروف هي ذاتها،
لكن الزلزال بدَّل مواضعها . .
وأنا من زلزال إلى آخر،
فأين المفرّ من مدينة الأحزان البضّة؟

١٥/٣/١٩٩١

رسالة إلى وطن بلا وطن

هدنة . . أُريد هدنة .
ذات يوم ، تشاجرنا يا صديقي . .
لأنك ساهمت في كتابة النظريات ،
عن جمالية صوت «الكلاشن» والمتفجرات ،
وشاعرية الخنجر . . . والمدفع .
ومنذ ذلك النهار ،
تكومت الجثث في شوارع الشرقية والغربية معاً . .
وأنا أتلو معك فعل الندامة هاربة بجثتي . .
أصرخ : شرقية . . غربية . . ما الفرق؟

هدنة . . أريد هدنة . . أوقفوا القصف المسعور . . فليكفّ قابيل وهابيل عن الاقتتال ثانية أبدية واحدة ، ريثما أعيد طفلي إلى رحمي قبل أن يسوقه الجنون إلى مقصلة الصدفة العمياء ويعلّق صوَرَه في ملصقات من أجل فواتير أمراء الصفقات البشرية . . . لقد انتصرت الحماقة والرعونة والطمع . انتصرت قصفاً وتهجيراً لنا . . وها هو الموت يقف على جثة أمه وقد فتح أصابعه بإشارة النصر كالمقص الجهنمي ، والجموع تصفق في غيبوبة الهذيان . . فأوقفوا هذا القصف ، واخرجوا من حناجرنا لنقول لكم كم نكرهكم . . أخرجوا خطّافاتكم من لحمنا

لنرجمكم.. أُخرجوا من تحت جلدنا، واقتتلوا حتى الموت ثمالى بالشعارات على مراكب الجنون.. ولكن دعونا وشأننا وأوقفوا هذا القصف ريثما أعود سحابةً ترحل بلا تأشيرات في جواز سفر، ودون أن تطوي بيتها وذاكرتها في حقائب السفر..

★ ★ ★

هدنة.. أريد هدنة.

شرقية، غربية، ما الفرق؟ اليهما معاً أنتمي لأن ولائي للوطن الواحد، ولا أميّز بين عيني اليمنى وعيني اليسرى، لكنني أريد هدنة بين القذيفة والجنون، فأوقفوا هذا القصف باسم طباشير الأطفال، وفراشات العشّاق، باسم طابور الخبز على أبواب الذعر، باسم العجائز والمحتضرين وعباد الرحمن الرحيم أوقفوا هذا القصف الرجيم...

كل الذين أوقعوا بين قابيل وهابيل يتندرون اليوم بمأساتهما في الغربية والشرقية والجنوب والشمال. وكيفما تحرّكنا، يسقط السقف ذاته فوقنا، والخطب المتشنجة والأكاذيب والقذائف..

كل شيء ينفجر بنا.. حتى الأغاني والتفاح والأبجديات التي احتكرها القراصنة. زوّروها وها هم يتشدّقون بها.

يتحبون كغواني آخر الليل على بكاراتهم السياسية في حانات الغدر..

غلمانهم يحاولون عبثاً تعليمنا، كيف نصافح قاتل أبينا في عرس المصالح..

غدروا بنا.. صرت في مهرجاناتهم الخطابية أربط حولي حزام الأمان وأبحث عن مخرج النجاة، بينما هم ينفخون الكلام بالغازات المسيلة للدموع. لم نعد نشعر بالاستقرار إلا في مقعد

طائرة تحلّق بنا بعيداً عنهم . .
صار التشرد يقيم في بيوتنا . . الرحيل وحده استقرارنا . . .
ما قد لفَظَنا الزمان على شطآن القارات،
الذين غدروا بنا يتغنّون بغدر الغدر لهم، ويقبضون فواتير التأمين
على الموت . . موتنا . .
شرقية، غربية؟ ما الفرق؟
تعددت المناطق والموت واحد . .
والفقر والقهر والذعر واحد . .
لا تتوهم يا صديقي أنها تمطر . .
إنه العالم يبكي،
على طاولات مقاهي الغربة،
وتنكسر مظلاته تحت وطأة رياح الموانىء . .
ما الذي يظل يشدّنا إلى هناك؟
رائحة الموت، أم الحياة؟
أم أن بيروت
هي الدخول في المرآة؟

* * *

هدنة . . أريد هدنة .
أن تمطر موتاً في الشرقية يعني انها تنتحب قصفاً في الغربية،
وداخل جمجمتي إينما كُنتُ . . . بالرغم من وهم التباعد وافتعال
الشجار . .
فلا يزال تقسيم القلب مستحيلاً إلى شطر شرقي وشطر غربي . . .
ولا أتمنى إلا أن تبدو هذه السطور (التي أخطها الآن بحرقة

القلب أمام القصف) وقد عفا عليها الزمن، ورحل الموت المجاني عن لبنان...

لا أريد أن أصدق، أن الكوابيس احتلت مساحة الحلم، وانتهت بيروت في محرقة الجنون المتجددة المتنقلة بين نساء يرتدين السواد ويندبن رجالهن...

تطل وجوه الأحباب في بيروت الشرقية والغربية، تطل راكضة كالمرئيات من نافذة قطار مسرع مبحر إلى اللازمان واللامكان ملطخة بالمطر والدم والوحل. تثير في الشرايين المكهربة بالشوق رعشة تشبه البكاء الصامت...

لم يعد قطارنا يتوقف إلا في محطات الخيبات، حيث الثلوج موسخة بالقطران الذي كان دماً...

نسيتنا الدنيا.. الكل مشغول برومانيا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا وأرمينيا وألبانيا وألمانيا الشرقية ويوغسلافيا وبلغاريا وأذربيجان وليتونيا وليتوانيا واستونيا وياناما... و... و...

ومن يبالي بشعب يمارس الانتحار الجماعي البطيء منذ خمسة عشر عاماً والتعايش السلمي ولكن مع الجرذان والصراصير؟ إذن لا جدوى، حتى ولو انتحبنا في مكبرات الصوت في ميكروفونات العالم كله، تسع وخمسون اذاعة عندنا نستطيع أن نموء عبرها جميعاً.. لم يعد أحد يبالي بنا أو بإيداعنا في مستشفى المجانين الكونية. ونستطيع أن نؤذي أنفسنا كما نشاء، ونلوك جدران غرفتنا المبطنة بالمطاط والهذيان... إسمنت النسيان والضجر شيّد قلاعه في آذان الدنيا عاماً بعد عام.. لم يبقَ ثمة أمل بإنقاذنا من أنفسنا إلا بأنفسنا!

★ ★ ★

هدنة . . أريد هدنة .
لا أريد أن أصدق أن بيروت رحلت إلى الأبد . .
لا أريد أن أسمع وقع خطاها يموت في الشوارع المحروقة حتى حدود الأُفق . .
لا أريد أن أصدق ـ شفقةً على نفسي ـ أن ذلك الزمان أضحى مجرد صدى داخل دهاليز تنهار . . صوراً في مرآة تتحطم تحت القصف وتتفتت بعدما رسمت ذاتها مراراً . . .
لا أستطيع أن أصدق نوافير البكاء والدم ودموع الأطفال، وأن على المرء أن يتمتم وداعه مرة واحدة، وينطفىء . . .
ولن يقنعني أحد،
إن اللهب جميل لأنه يرقص
والقتل جميل لأنه يحاكي القدر
والظلم جميل لأنه طبع العشاق! . . .
سأرحل . .
سأستقل الطائرة، في جواز سفري تأشيرات لعشرات المنافي، تحت لساني عشرات اللغات، وحقائبي محشوة بثياب لعشرات المناخات .
ولكن في أصابعي عشرة خواتم عربية، وما زلتُ امرأة لفصل واحد: فصل الحب، ولوطن واحد يحترق بشقيه في الشرقية والغربية . . .

★ ★ ★

هدنة . . أريد هدنة .
فأنا أخطّ سطوري والقصف يزلزل الأطفال في هذه اللحظة،

آه يا صديقي الذي ساهم يوماً في كتابة الشعارات والنظريات عن جمالية العنف وشاعرية الخنجر والقصف...
أنتظرك، وأعرف ان جثتك تناثرت في الملجأ البيروتي مع بقية خرفان الوداعة. وسأنتظرك وحيدة مع أمسية أخرى حزينة، تكوّم جسدي فيها في الشانزيليزيه، بينما أنا أتابع حياتي مع أبناء قومي في ملجأ بالشرقية أو الغربية لا فرق.. سيأتي النادل.. يلملم فناجين القهوة الفارغة، وأعقاب السجائر المستهلكة بالنار ورماده، ويلملمني عن مقعدي مع بقية الأعقاب المحروقة.
آه يا وطناً بلا وطن، تعال نتشرد معاً...
مكسوران نحن أمام حقائب الذكريات،
مكسوران أمام صدى المستحيل الأخرس،
مكسوران لذكرى أمسيات الياسمين وملح الشهقات البحرية الجذلة، مكسوران أمام الورود الحمر التي كانت تتسلق الجدران المثقوبة بالقذائف حتى القرميد.. مكسوران بذكرى شوارع كانت تفوح عطراً وسحراً وهي تعد نفسها لليلة حب مع البراءة... مكسوران إلى الأبد يا وطناً بلا وطن..
لأن الصدى لا يستطيع أن يرجع إلى صوته،
ولا العطر التائه إلى وردته،
ولا اللؤلؤة المثقوبة بالغربة إلى صدفتها
في قاع محيطات الذكريات اللامنسية،
آه يا وطناً بلا وطن
تعال نبكِ في الشرقية والغربية معاً...

١٩٩٠/٢/٥

رسالة إلى رائد الفضاء السوري

لا أعرف، هل أودع رسالتي هذه إليك مظروفاً تقليدياً، أم زجاجة ماء أطرحها على شاطىء المحيط، أم كبسولة أشواق؟
وأي طابع ألصق عليها غير طابع القلب؟
لقد حملتها وذهبت بها إلى البريد، وطلبت من الموظفة طابعاً لأخي العربي السوري محمد فارس المقيم هذه الأيام في الفضاء، في «سويوز تي ام - ٣»، فسخرت مني وزجرتني، فأعذرني إذا ألصقت على رسالتي إليك طابع القلب الذي لا ترفضه المدارات كلها...
ثم إنني مرتبكة، لا أعرف كيف تبدو الأبجدية لإنسان أقام في فندق الفضاء، وشاهد عبر نافذته كوكب الأرض مقطراً في لحظة وعي شمولية لا تفسدها التفاصيل الصغيرة كالأعاصير والزلازل، ناهيك عن رسالة تطير إليه تائهة مثل ورقة خريف في غابة الزمن الشاسعة.
لقد سطّرت من قبل آلاف الرسائل إلى أحباء يقطنون بين أقاصي الأرض ومغاور أعماقي، ولكن لم يسبق لي أن كتبت رسائل فضائية لغير النجوم... والاحلام.. والأشباح اللطيفة، وساحرات الأساطير الراكبات عنزات الخرافة.. ولم يسبق لي أن ارتبكت أمام رسالة كما أنا الآن، مثل فراشة متورطة بمصباح منارة!

★ ★ ★

هل أنت الذي يدور في الفضاء في ما أنا أكتب له قصيدة؟ أم أنت الذي يكتب قصيدة شعب سورية نجمةً بعد أخرى؟

شسب التحليق النابض حتى المجرّة منذ أقدم العصور... ها أنت تكتب الشعر بثياب الفضاء، وتسطّر أبياتاً خالدة على أطراف ثوب الوطن، حيث طرّز التاريخ قبلك أبهى جواهره وحروفه..

فرحتي بك كبيرة يا فارس الفضاء محمد فارس. فأنت أول من وطىء الرخام الأثيري من بلدتي سورية.

وأنا امرأة عربية بُحّتْ حنجرتها طوال عصور وهي تصرخ «وامعتصماه» بحثاً عن رغيف عزّة... لقد ركَضت في حنجرتي عربات الأعداء جيئة وذهاباً، فجرَّحَتْها، وخلّفتْ عليها جزمات الغاصبين الصهاينة بصمات الخزي والعار.. تعبت من اقتران اسمي بالهزائم والمذابح، تعبت من اقتتال ابنائي فوق سواد عينيّ، وتعبت من رايات الأخوة الأعداء التي تحمل شعارات النصر المزوَّر كلما نجحوا في قتل أكبر عدد ممكن من اخوانهم في الأزقة والشرفات ولوّحوا بشارات النصر بأصابعهم فوق جثثهم... في قلبي شوق جارف إلى فرحة التألق التاريخي، والتضامن العربي الذي ما زالت ذكراه في فمي منذ مئات السنين رغم طعم الكدمات والدم... وأنا اليوم فخورة بأن يقترن اسمنا بالعِلْم، لا بالدمار وحده والأذى المجاني والارهاب كما يحاول الصهاينة تصويرنا (ويساعدهم بعضنا في ذلك بنجاح يُذكر!)..

★ ★ ★

أعترف. أنا امرأة عاطلة عن النسيان. حين يومىء وطني أتبعه حتى مدارات الكواكب... شأم حتى قاعي.. وحينما أفكر بك

يا محمد فارس وبالشآم، أشتعل حباً لبيروت المصلوبة على الجحود، ولجراح القدس، ونخيل بغداد النازف، وأحزان الخرطوم، ورقصة النيل أزلية الكبرياء، وأحصنة البحر الخرافية في جدة، وخلجان اللؤلؤ البشري في الكويت، وجزائر الثورة والعنفوان، وأصيلة المغربية التي تتنازع أبوّتها زرقتا البحر والسماء، إلى آخر تلك الأرض العربية التي لا آخر لها في قلوبنا.. وفي تاريخ كوكبنا..

«من أنكر أصله، فلا أصل له»...

شآم حتى قاعي.. شآم التحليق والمحبة.. ولست بحاجة لأن أهيل الصحو على رأسي.. فأنا الذاكرة لا الذكريات.. ولم أغادر حقاً وطني في أي يوم لأنني أنا بلدي.. دمشق قلبي النابض. بردى حبل وريدي. نهر الفرات خطوة مائية القدمين صوب توأمي العراق.

... غابات كسب وصلنفه والفرلق، دعوات أبي وصلواته الخضر منثورة على الجبال.. لا أحد يقدر حقاً على فراق وطنه. صحيح أنه لا يطاردنا كالشبح ولا يلومنا كالعاشق، ولكن كيف نغادره وهو يَصيرُنا؟..

فخورة بابن بلدي فارس الفضاء الذي يجسّد حلماً قديماً من أحلامنا: التحليق صوب المعرفة.. ولا أستطيع أن أكون لامبالية أمام شاب جسَّد طموح جيلي إلى... الـ «هناك».

★ ★ ★

قل لي يا فارس المدارات محمد، لماذا قدرنا أن نذهب إلى الفضاء داخل قفص؟ هل المجرّة عدوانية؟ أم أننا لم نتعلّم المشي

بعد ناهيك عن التحليق؟ ومتى تكفّ «الإنسانية» عن الشجار مع «صبيان الحي»، وتجد الوقت لتكبر؟
خطوة إلى الفضاء... من هناك ترى بوضوح ان الوطن قيم، لا خرائط فحسب.. (هل شاهدت من هناك خطوط حدود مرسومة على الكرة الأرضية؟). الوطن ضوء ومفاهيم إنسانية. ربما من عندك ترى المستقبل البعيد: الكرة الأرضية بأكملها دولة واحدة، تحلم بالوحدة الكونية مع كواكب أخرى..

★ ★ ★

مرة كنت أقطن مدينة غبارها الياسمين، وحصاها النجوم، وأنشودتها نغمة التحدّي للفاتحين على مرّ الدهور.. مدينة تكسّرت على أسوارها محاولات الزمن لإذلال شعبها الرقيق كحد سيوفها، الشرس كأحصنة العرب البرية التي تستعصي على ترويض يد غريبة.. كان اسم المدينة دمشق، وكُنتُ بنتاً صغيرة تهرول كل فجر في «طريق الصالحية» إلى المدرسة.. لقد علّمتني دمشق كيف أُشرك في الحب، وكيف أعشق كل تبرٍ متنكرٍ في هيئة تراب على أرض وطني العربي الشاسع.. وعلّمتني الوفاء لكل من علّمني حرفاً، (وحين دَرَّسَني لبنان فيما بعد أبجدية الكرم والحنان والعطاء، صُرت له سبية حب حتى الموت).. أمشي إلى المدرسة وقلبي يلتهب طموحاً وشهية للمعرفة وجوعاً إلى التحليق.. ولأنني كنت في العاشرة من عمري، عبّرت عن ذلك بإلصاق شعار «طيّار» على كتف زيّي المدرسي - وكانت صديقتي تطّوعت بسرقته عن بزّة شقيقها الضابط الطيار - وصار الصبيان يسمونني «طيران»، وأنا أزهو

بشعار حياتي وبتلك الـ «بادج» المُستعادة لا المسروقة.

* * *

حلم الطيران لم يكن نزوة فردية... إنه نبض شعبي العربي عاشق المعرفة والأعالي. وإذا كنت قد عبّرت عن ذلك في صغري بشكل طفولي، فأنا اليوم أيضاً أعبّر عن فخري بك يا فارس الفضاء محمد بالأسلوب الطفولي ذاته...

وأنت الآن هناك، تعانق الأرض العربية بعينيك دفعةً واحدةً، تحتضنها بنظراتك وتحقّق أمنية سنموت ولا نذوق طعم عذوبتها...

ها أنت ترتدي ثياب الفضاء، وتمارس الحب الصوفي مع الوطن الغالي وتسطّر الشعر... تحضر زفاف العلم إلى الشجاعة، وتهمس عنا جميعاً: هذا هو الطريق...

سأعترف لك: إنني فخورة، لكنني أشعر بغصّة في قاعي تنغِّص عليَّ فرحتي بك وأنت تحلّق في مركبة مدهشة إلى حيث لا تصل النوارس، والطيور كلها (باستثناء عصفورة الشعر)... غصّة لها مذاق الحزن لأن تلك المركبة ليست من صنع أيدٍ عربية ولم تخطط لها أدمغة عربية..

إنه الحزن ذاته الذي يأكلني كلما تذكرت أن أول رجل وطىء القمر لم يكن عربياً..

لأنني أنحدر من سلالة رواد التاريخ والإنسانية والعلوم منذ أقدم العصور، لا أريد أن أكون ضيفة على مائدة العلم...

وأحلم بأن تكون يا أخي طليعة جيل يمسك بيديه من جديد حرفة صناعة التاريخ والعلوم. فهل؟

١٩٨٧/٧/٢٦

رسالة ميلاد إلى القريب البعيد

أعرف أنك تتذكر شجرتك الأولى
في المكان الأول، وتغص..
أعرف أنك مشرّد ووحيد
تزيّن شجرة الميلاد في الغربة
بمصابيح الحنين... والصور العتيقة والتذكارات وأعلام الحرية..
أعرف أننا لو التقينا الليلة
لقرأت عليّ كتاب التنهد
والأشواق إلى غابة من أرز الميلاد..
أعرف أنك عقدت حلفاً مع النسيان
ونكثت به..
أعرف أنك سطرت معاهدة مع الصخب،
لكنك الليلة لا تسمع غير أجراس الذاكرة،
والذاكرة دوماً على حق..
ميلاد مجيد أيها القريب البعيد!
أينما رحلتَ لن تغادرك شجرتك الأولى في الوطن.. وستظل تحمل غابتك داخل قلبك كوكباً استحال غباره إلى أثير... حنينك إلى عالم يكاد يتلاشى هو صليبك اليومي..

وحين تركع على قدميك في الظلمة سراً،
والشوق مذبح ترفع له قرابين الدمع اللامرئي،
ستجدني إلى جانبك، أمجّد معك نبع المحبة
في زمن الكراهية واليهوَذات (جمع يهوذا)..
حزنك ليس غريباً عني...

★ ★ ★

يوم ولدتُ اشترت لي أمي قبراً،
في عيد ميلادي العاشر أهداني أبي كفناً،
نسيت أن أقول لك اسم جدي: إنه الحزن!
مثلك أنا.. وحدها المحبة تنقذني: في النهار فراشات ملوّنة متطايرة، وفي الليل منارة.
مثلك أنا، حزينة وسعيدة لفراق بيروت.. حزينة من أجل الذين قتلتهم بيروت، وسعيدة لأنني نجوت!

١٩٩٥/١٢/٢٢

رسالة إلى رجل غدرتُ به

تُذكِّرني بك ليلة رأس السنةَ. . .
ولذا أمشي في شوارع باريس، وقلبي يضرب اسمك كطبل افريقي، وأنفاسي تكتبه بدخان لفافتي على الرياح مثل برقيات استغاثة بدائية.
أمشي تحت المطر وأناديك كمن يتلو تعويذة. أكرر اسمك، أحمله درعاً في وجه العاصفة والريح والظلمة، وبكاء كوكبنا الليلي الملقَّب مطراً.. (أينما كنت، هل تسمع صوتي أيها الغريب؟ وكيف أعلِّمك قراءة كتاب العواصف، لنتواصل؟).
أسمعك تعاتبني: لماذا رحلتِ؟ وبالصمت تعاقبني، آه، تلك الطرق كلها كانت تقود إلى النوم، فحاولت أن أحفر مجرى يقود إلى الشلال الشاهق. تلك الطرق كلها كانت تودي بي إلى التثاؤب، وحاولت أن أعبّد درباً إلى السر.

★ ★ ★

لماذا رحلتُ؟ تعبت من أوراقي التي تتطاير بين أيدي المخبرين ومحتلّي البيوت وجُند المطارات. . ولم يعد بوسعي أن أجرّ نفسي في مهرجانات القتلة والسفّاحين المتاجرين بالمخدرات الفكرية والمقدّسات والشهداء ومستقبل الأطفال.

تعبت من نشرات الأخبار ولغتها التنكرية في مهرجانات ارتداء الأبجدية للأقنعة. تعبت من الاغتسال بالدم على قارعة الايديولوجيات وبنجاسة مزوّري الصابون.
حاولت الخروج من زمن الطحالب إلى زمن الأشجار، ومن الاستسلام إلى رفض الانهيار.
تعبت لكنني ظللت أميّز بين القتلة والشهداء، بين المناشير والتعاليم المقدسة.
تعبت وأنا أتدلى من أذن بيروت قرطاً في عرس القراصنة والجماجم، فحملت أوراقي وركبت طائرة ورقية ملوّنة وهربت بها واهمةً أنها ستحلّق فوق قارّة الحلم والدهشة. لكن وجدتني فوق أوقيانوسات الحنين.
ولماذا لا تعودين؟
سأعود، ولكن لا تنسني ريثما أعود!
لماذا لا تعودين؟
لم أعد أذكر...

١٩٩٣/١٢/٢٣

رسالة امرأة تحب الأسرار

دنياك تجتذبني،
لأنك بريء الشر..
وكالضوء، لا تعرف لك حدوداً،
وتشرق فوق النساء كلهن..
متسللاً إلى كل مكان تطاله أشعة يدك..
دنياك تجتذبني، فأنا أحب المنعطفات
لأنني لا أعرف من يكمن لي فيها..
أحب غرف الأسرار محكمة الإغلاق
لأنني أجهل أية مباهج تُحاك فيها، ومكائد..
أحبُّ صمتك، لأنه اللغات كلها في آن..
يمتّعني أن أتحدى غموض غاباتك،
كأية حبة قمح معتدّة بنفسها..
سماؤك تُغيّر كل ليلة نجومها..
بحارك تبتلع كل فجر مراكبها وتُطالب بالمزيد..
إلى موتي بك مشيت أكثر خطاي رشاقة.
عشت احتضاري المتأجج بك،
كراقصة باليه يحسدها بجع البحيرات الفضية..
سأظل أرتكب الشوق إليك،

قريبة منك وبعيدة في آن،
كي لا تطحنني ولا تسأمني، ولا تحتلني ولا تغادرني!!

١٩٨٩/١٢/٨

رسالة امرأة تكره الأسرار

دنياك تخيفني،
فأنت غامض كالموت..
وثمة ما يرعبني في قشرة عذوبتك..
وداخل عينيك، أرى امرأة تركض مذعورة،
يلاحقها قرصان خشبي الساق على السفينة،
ويغرس في صدرها، خطّاف ذراعه المعدنية المكهربة..
لن أضرم النار في أجنحتي، لأدخل ملكوت حبك..
ولن أعيش رهن نبوءات قارئة الفنجان
وأمزجة أوراق اليانصيب، وأحكام قرقرة النراجيل..
مرة، تكسّر قلبي على صخورك المسنّنة،
كأي نورس مسّته صاعقة..
فهبط من غيمته الوردية،
لينحت التماثيل لحبك ويكسرها في آن..
مرة، مددت يدي من تحت سجادة الليل،
ولم أصرخ «النجدة!»، لكنني تسلقت الخواء الخاوي
صوب الشمس، فنمت أجنحتي
... لأنني امرأة عربية، مقهورة قاهرة،
أتقنت طقوس وأدي،
وخروجي من رمالي، واشتعال رمادي.. وطيراني.

١٩٨٩/١٢/٨

رسالة إليكَ أينما كُنتَ

لأنني شاطرتك رغيف الحزن والأمل،
على موائد القهر الموحِّد..
لأنني ركضت وإياك في ليالي القصف المسعور، وقاسمتك
تابوتك..
لأنني لونت معك بيض الفصح
بريشة قوس قزح، داخل أحلام الأطفال،
في مهرجانات قيامة الفرح والابتسامات المنهوبة..
لأنني مذعورة ومكسورة مثلك،
أناضل كي لا يغسل «المناضلون» أحذيتهم بدمنا..
لأنني مشردة على بوابات المطر مثلك،
في وطن البارود والحشيش و «الفاليوم» والشعارات،
تَجذُني راحلة مثلك لأغسل شراييني
بفجر قطارات تركض بي إلى حيث لا أدري..

★ ★ ★

لأن في قلبي وقلبك أحزان وطن
تقدِّس حلمه بالحرية،
أتذكرك الليلة بكل الحنان الممكن والحنين،
وأهمس في ظلام الموانىء:
فصح مجيد أينما كنت وكيفما كنت يا غريبي!

١٩٨٩/٣/٢٤

رسالة نمل الفراق

ليس صحيحاً أن الفراق،
انفجار مليء بالصخب والنواح والجنازات الكبيرة،
وطقوس تمزيق الصور والرسائل وإعدام الهاتف..
الفراق نملة،
تأكل القلب ببطء عاماً بعد آخر..
في مسلسل انتصار التفاصيل المترهلة
على شهية التحليق..
وكلما افترقنا يا غريبي، تنمو التفاهات الصغيرة
في حجرات روحي الخاوية برحيلك.. وتحتلّها..
مزلاج الباب يئنّ نواحاً لم ألحظه من قبل
ولا بد من «تزييته»..
عقدي الفضي بحاجة إلى تلميع..
وعقدة الستائر أكبر مما ينبغي..
ومصباح البراد بحاجة إلى تبديل..
ولون طلاء أظافر جارتي لا يعجبني!

★ ★ ★

... نفترق يا غريب،

وفجأة تبدو التفاصيل محور العالم . .
كأن الشمس لم تعد هناك،
والبحر والحقول والغابات والمدى،
وشروق القمر فوق الليلك المائي . . والنوارس . .
كأن ذلك الكون الشاسع رحل معك
وخلفني وحيدة داخل حذائي!

١٩٨٩/٣/٥

S.O.S «رسالة استغاثة»

رغم بشرتي البيضاء،
أنا امرأة زنجية بمعنى ما
لأنني امرأة عربية!...
كنت موؤودة تحت صحارى الجاهلية،
وصرت في عصر المشي فوق القمر
موؤودة تحت رمال الاحتقار المتوارث
والإدانة المسبقة لي...
لا أفتش عن الحب،
أفتش عن امرأة مثلي
وحيدة ومتوجعة
كي أمسك بيدها
ونحن نلد وحيدتين على أشواك الحقول،
وننجب أطفال القبيلة
الذين سيعلّمونهم فيما بعد احتقارنا!

١٩٨٩/٣/٢٤

رسالة رجل مزاجي

عاد حبيبي من السفر،
تأملني وقال: أنت ميتة..
وقضى الليل وهو يركض في حقولي،
ينادي عصافيري المهاجرة،
ويسقي أغصاني بماء الجنون وندى الحنان.
وعند الفجر،
تفتّحت ورودي متأججة بالدفء والضوء،
ورجعت عصافيري إلى أغصانها،
وارتدت أشجاري براعمها الذهبية الشفافة،
فتنهد حبيبي ضجراً وقال:
حان وقت رحيلي!

١٩٨٩/٣/٢٤

رسالة مزدوجة الشخصية

- عام آخر وأنا تائه بين وجوهك في غابة مرایاك، فمن أنتِ؟
- أنا ذاكرة لا ترید أن تفقد ذاكرتها. وأنتَ، من أنتَ؟
- أنا رجل استطاع الحصول على كل شيء في الحياة. ثمة شيء واحد ينزلق من بين أصابعي: إنه الحياة!
- لأنك شفاف توهّموك زجاجاً هشاً. وكنتَ رجلاً قُدَّتْ روحه من الماس الصلب!
حين أكتب عنك، يتحول قلمي الرصاص بين أصابعي إلى شجرة حية.
- لماذا هجرتني ما دمت لا تكرهينني؟
- أن تجيء إلى المقهى متأخراً يومين عن موعدنا، وتجدني ما زلت جالسة في انتظارك أدفىء فنجان قهوتك بيدي وأنفاسي:

هذه فكرتك عن الحب!
- ألا تبالغين؟
- مأساتي أن حبي مبصر، مجنون لكنه يرى بوضوح.
حين احتضرتُ على طاولتكَ كسمكة، مرمية فوق صخرة، أمطرتني بسكوتك. وحين سقطتُ على الأرض مثل جريدة عتيقة لم تنحنِ لتلُمّني!
- وهل أنتِ سعيدة بانتصارك؟

- لست أكثر من ريشة في مهب الظلام والثلج والذاكرة، وانهيارات مناجم السنوات.
- ألستِ غريبة الأطوار بعض الشيء؟ تلاطفين خناجر الماضي؟
- سئمت حرفة الوداع، لا أريد أن تتخذ العلاقة مع ما كان صورة القطيعة. أكره التنكر للذين يسبحون في دورتي الدموية!
وأنتَ، أما زلتَ على قيد الحب؟

★ ★ ★

- ما زلتُ على قيد الحب والحياة والجنون، فأين نلتقي؟
- سنلتقي عند النهاية الأخرى للمطر! لن ادعك تخترق أسوار روحي ثانيةً برمحك المتوّج برايات شهريار المنتصر.
ذكرياتي الآتية تقول لك: كل عام وأنت بعيد!
- ولماذا ترضين باستجوابي لك؟
- قليل من الاستجواب ينعش قلب الصمت!
- هل ترضين بمهنة الفراق؟
- مهنتي؟ سجّانة لمشاعري نحوك!
ما زلت أتذكر كيف أوسعتني حباً. معك تعاقبت المنافي على قلبي.. والحرائق..
- ولكنني أحببتكِ وما زلت!
- ثمة أنماط من الحب تشبه الاضطهاد.
معك، أفضل التعايش السلمي الفاتر، فلا تطاردني حتى عقر أحلامي!
- كم أسبوعاً في كل يوم من أيام الفراق؟
- كل يوم فراق سنة ضوئية. ولكن، بعدما مزّقتني ومزّقتك مثل

رسالة لا نريد أن نعيد قراءتها، لماذا تريد أن نحاول عبثاً إعادة إلصاق بقاياها لنجدّد تلاوتها.. بأحزان وميتات لا تحصى؟

- لا أريد أن أخسَرُكِ في هذا الليل الماطر المظلم، ليل الاختناق والرتابة والعمر المعلّب والأصدقاء الألداء!

- حتامَ تصهل خيولك وتهرول أفيالك فوق شطرنج أيامنا؟

لقد ربحتَ الحرب يا صديقي، وخسرتني!

حين تحدّثني عن الليل، أعرف أنك تعني لعبة شدّ الحبل.

وحين تحدثني عن المطر، احصي هداياك لي من صرر البكاء.

وحين أزورك في غرفتك المسائية وتفتح النافذة على الريح، تفوح رائحة المنافي والموانيء والقطارات في محطات الليل.

وحينما أفكّر بوطني البعيد وأنا معك، أشعر أنني خاوية مثل زجاجة نبيذ رمى بها بحّار ثمل في عتمة البحر، وأعرف أنك لست البديل.

وحينما تقهقه بلا مبرر، يخترقني حزنك كالسكين!

* * *

- يبدو أنني أنزف بلا جدوى أمام أحزانكِ المطهمة!

- بعد قرون من تيهك بين العصور والنساء والوجوه والشهقات والتقمّصات العديدة، التقينا مرة وكان القمر بركة من الزئبق المشع في غرناطة.

وما زال ظلّك يلاحق ظلّي، داخل المرايا الفضية للأمسيات الغابرة، والأيام الأثرية الهاربة.

ما تزال المرآة تشع كلما طلينا وجهها الآخر بهباب أحزاننا، وتتوهج ممتلئة بنا في خواء القرون المتتابعة.

وثمة غجري يضيء مصابيح البكاء وهو ينشد على غيتاره كل ما
خططته لي فوق صفير البواخر الراحلة،
وما علّقته من مناشير الحب فوق أسوار الريح.
وثمة غجرية ترقص لعزف جنونه وتغرس كعبها المدبب فوق
أوراقك، وتسقط الوردة الحمراء من شعرها الطويل الفاحم على
حضنك.
وثمة طفلة ضالة في الغابة، خط الشيب شعرها،
تطارد فتات خبز الذكريات،
كي لا تضلّ الطريق إلى «الغيبوبة» في الهزيع الأخير من الحنين.
تاريخي معك طويل، أعيه داخلي ولا أستطيع إثباته للكومبيوتر
ولا لمحاكم التفتيش الأدبية.

★ ★ ★

ـ ألا تريدين الاختباء من العاصفة؟
ـ أفتش عن نورس ثمل بالفضول مثلي، يظل يحلّق في العاصفة
بلا وجل لنرحل معاً..
نطير ونحن نقرأ كتاب الرعد والسحب المجنونة في ضوء
البروق،
نغسل حبنا بالمطر المتوحش، وقد لمستنا الصاعقة وشبَّت النار
في أجنحتنا حتى الثمالة.
لا أخاف الموت. أخاف الرتابة!
مرة، كتبتُ إليكَ بلا حروف، وحاولتُ التواصل معك بلا أقمار
اصطناعية.. سطرت رسائلي على صفحة أثير التخاطر ولم أكن

أعرف أنك تجهل هذه اللغة، وترتاح إلى أبجدية المجاملة المروضة..

ـ من هو صديقكِ الوحيد؟

ـ القارىء!

ـ وماذا تقولين لقرّائك؟

ـ إليكم جراحي، فأدخلوها بسلام آمنين!

١٩٩٥/١/٦

رسالة من حياة مستعارة

وكل ليلة غربة، يحدث لي شيء عجيب.
أغادر جسدي، أنضوه عني كثوب عتيق. أتركه مكوّماً في فراشي كدمية لتزوير حضوري.. أمضي بعيداً في طيران ليلي مبهم، من شاطىء نهر السين إلى شواطىء بحر لبنان..
أسري حرة كالريح على تلك الرمال التي أحببت.. وأُلامس تلك الخلجان اللامنسية برقّة قبلة.. طرابلس.. جبيل.. جونية.. بيروت.. عين الحلوة.. الدامور.. صيدا.. صور.. وبيروت.. بيروت.. آه بيروت.

قلبي قصبة مثقوبة كالقيثارة، تعبرها هذه الأسماء كالموسيقى.. كلحن قديم سمعناه ذات براءة وفرح.. كذكرى أغاني الأم في الدم.. من ينسى ذلك النشيد الحنون المعلّق على حافة الأنين؟

★ ★ ★

... وكل نهار غربة، ألعب دوري بإتقان في مسرحية التشرد العصرية. أبدو من الخارج نغمة منسجمة مع سيمفونية الهستيريا لمدينة يقطنها عشرة ملايين متوحّد.
أتسلق ناطحة سحاب أقطنها. أهرول خلف المترو. أُلاطف الكومبيوتر. أجامل الفواتير البريدية. أثرثر بالفرنسية والإنكليزية

مع أصدقاء الجسر، وطرف الجسر الآخر يغمره الضباب. أتقن القفز بين المراكب العابرة ووهم الصداقات.. والتزلج فوق زيف «المعارف» الحميمين!

ثم يأتي الليل. في عتمته الساطعة تتبدى الأشياء على حقيقتها. يتقدم «السيد النوم» بممحاته السحرية ويزيل عن وجه نهاري أصباغ التكيّف الهزلي مع واقع زئبقي. يعيدني حقيقيّة وشرسة كجرح مفتوح. داخل جرحي يطلع لبنان، ذلك الوطن الذي فتح صدره للجميع، فأغمدوا فيه خلافاتهم ومضوا.. وتركوه ينزف وحيداً.. إلا من عشاقه الغجريين، الذين ما زالوا يجهلون كيفية التخلي عن الحبيب ساعة الشدة.

★ ★ ★

... وكل ليلة غربة، أتوهم أنني ذاهبة إلى النوم، وأكتشف أنني ذاهبة إلى لبنان..

يحدث لي شيء غريب.. أحلم باستمرار بذلك الوطن الذي فارقته ولم أفارقه..

كل ليلة، أتجوّل في شوارع بيروت، وألتقي صديقاتي وأصدقائي اللامنسيين..

أعبر وهم الحقيقة المعاشة إليهم، فيتحوّل الحلم إلى حقيقة أكثر كثافةً من الواقع الذي أحياه هنا..

حين أستيقظ من هذه الأحلام الصلبة، وأنهض لأتابع حياتي اليومية، أشعر كمن هو ذاهب إلى نومه، بعدما عاش حياته الأصليّة الغامضة التي لا يستطيع أن يثبت «مادياً» أنها وقعت له... ويعجز عن نفيها إلى الخرافة في آن.

حتى أصدقائي اللبنانيين في أوروبا أحسّهم غرباء عني. كأنني أريد أن أعاقبهم لأنهم استطاعوا النسيان، أو كأنني أحسدهم لأنهم نجحوا فيه وفشلت.. أم تراهم جميعاً يتعذبون مثلي؟
آه النسيان..

★ ★ ★

كلما توهمت أنني نجحت في النسيان، أكتشف كم كنت واهمة. تفاصيل صغيرة تأتي فتقشر قناع الابتسامة عن الحقيقة المرّة، وهي أنني ما زلت خارج الدورة الدموية للمقيمين في باريس مثلي.
أتذكر الأحباب في لبنان وجهاً وجهاً، وأشعر أنني أكثر قرباً منهم من أحبائي هنا.. أطارد أخبارهم وأصواتهم وزمنهم، وأموت معهم في النسف والقصف. وأحيا مثلهم حين يلوح سراب الاتفاق والسلام..
كأن المحبة تتنفس داخل «الأماكن» التي مددت جذورك فيها، لا وسط فضاءات الغربة المفرغة من هواء المشاركة، المقطوعة الجذور..
ربما كنت أهرب من أحبابي هنا، خوفاً من أن نلتقي في الهزيع الأخير من الحزن، وقد كسرنا «مزراب» القلب، بعد ليلة توهمنا خلالها أننا ضحكنا وتسامرنا وطربنا، وعشنا مباهج السهر في مدن لا تعرف منع التجول للفرح..
ولكن من يستطيع منع ذاكرته من التجول في شوارع العمر في لبنان، حيث نوافذ الأصحاب المطفأة، وشرفاتهم المهدَّمة المالحة؟

★ ★ ★

عامان وأنا بعيدة عن لبنان...

وفي أعماقي عصيان...

كأن تلك الأسرار في قاع روحي، تؤكد لي أن لا مناص.

عامان، ولم أحلم ليلة واحدة حلماً واحداً تدور أحداثه في أوروبا حيث أتشرد من وكر إلى آخر.. ومن شجرة إلى تلة ثلج.. إلى ليالي مصّاصي الدماء اللطفاء..

عامان، ولم يحدث مرة أن حلمت بمخلوق تعرّفت عليه خلال هذه الشهورالطويلة من التمزق الصامت تحت عجلات قطارات الأنفاق.. ولم يحدث أن دارت أحداث أي حلم فوق مساحة الأرض التي أتحرّك عليها..

لم أمشِ ليلة داخل أحلامي على شاطىء نهر الرون في جنيف، أو نهر التايمز في لندن، أو السين في باريس.

دوماً تجرفني أمواج اللاوعي إلى شطآن بلادي، إلى حيث الوعي والحقيقة والجذور... والوفاء لوطن يمعن في الدخول إلى محرق الليل والنار... لا أستطيع التخلي عنه لمجرد أنه يشتعل... ويبدو الاحتراق معه أكثر جدوى من التجلّد هنا.

أكرر: لا تسألوني عن سورية مسقط رأسي، ودمشق مسقط قلبي.. هذه هي أخلاق دمشق أمي التي علّمتني الوفاء لمن أعطاني بلا حساب.. وإخلاصي للبنان هو من بعض درس الوفاء هناك.. إنها أخلاق شعبي السوري في دمي.

★ ★ ★

لقد احتواني لبنان كما احتضن سواي، من مشردين وسعداء وتائهين وناجحين ومتمزقين.

منحني كما منح العرب جميعاً ما يطلبونه منه.. وطناً كان أم ملجأ أم مصيفاً أم امرأة أم منبراً أم حنجرة أم مجداً..

وسقط لبنان، وهربت الفئران من السفينة الغارقة... وتخلّى عنه عشّاق الأمس..

لكني غادرته دون أن يغادرني.. وكل ليلة أذهب إليه حافية الأحلام لأركع في بلاط الوفاء له، وألتقي بأصدقاء لم أرَ وجوههم منذ أعوام طويلة، أولئك الذين أكرموني يوم جئت بلدهم الجميل..

كل ليلة، يستدعيني لبنان، فأهيم في جباله وأقطف أزهاره وأمشي في دهاليزه وأعايش كوابيسه وتتفجر النيران وتنهار الأبنية فوق رأسي. تتبدل الصور بسرعة خارقة فأعيد عمري هناك كله.

تزهر الأشجار ثم تذوي،

تمطر ثم تشرق الشمس،

نركض في الحقول ثم نختبىء في الملاجىء،

ننتقل من مهرجانات بعلبك إلى القصف في المطار..

عمر سوريالي غريب يخلّفني كل صباح مضطربة في فراش الصحو.. أم تراه عتبة الذهاب إلى يوم آخر من التخدير بالحياة المزوّرة، والعمر المستعار في الغربة؟

ومن ينسى رائحة عناق جدته؟... ومن ينكر أن الغربة حياة مستعارة؟

★ ★ ★

الأحلام تنقلك إلى حيث يشاء قلبك، دونما تأشيرة جواز سفر، أو إذن مرور..

الأحلام عصيان على تزوير الواقع، ورفع لأعلام الحقيقة الداخلية..
الأحلام تقشر عنا غلالة المصالح وتخرج بأعماقنا الهشة فتعرّضها إلى نور العتمة...
في غمرة حزني، أمدّ يدي إلى رفاقي في الغربة الذين تقتحم أحلامُهم سلامَهم الداخلي، وتعذّبهم بصور البيت العتيق والسنديانة المقصوفة والنخلة البيروتية المكسورة الموسخة بهباب حرب متوحشة سيطرت فيها الذئاب الكاسرة على قبيلة الفنانين والطيبين (وأولاد الحلال) الذين لا صوت لهم حقاً.. وطردتهم من كبريائهم وشرّدتهم داخل أرضهم أو خارجها..

★ ★ ★

موجعة هي الأحلام..
متوحش هو الزمان الذي تعبر فيه إلى وطن أحببته داخل مراكب الحلم.. ثم تلفظك أمواج الصحو من جديد إلى شطآن الغربة وتخلّفك على رملها المقدّد مثل سمكة تتخبط في السراء والضراء، ولا تنسى..
موجع أن يعبر القلبُ الليلَ إلى وطنه في غواصات الحلم الغامضة.. فتعال أيها الغريب نعبر الليل معاً إلى المحبة والوفاء لبلد كانوا يحسدون من له مرقد عنزة فيه..
اليوم صار للبنان مرقد قلب في أعماقنا.. وتلك الأحلام الغربية، المؤلمة، قد تكون علامة عافية، وبشارة ولادة جديدة..
فالنسيان هو الموت الثاني للذين نحبهم.. وكل ليلة يولد لبنان

في أحلامنا جديداً معافى رغم كل شيء.. فالتخلّي عن لبنان يعني ببساطة أن أتخلى عن صدقي.. أي عن نفسي! ولكن ما حيلتي معه إذا تخلّى هو عن نفسه؟

١٩٨٦/٦/٣

رسالة الجنرال ثلج

كم الثلج حذر! يخلع حذاءه العسكري،
ثم يمشي على رؤوس أصابعه البيض كاللص،
ويعانق حبه دون أن يتفوه بكلمة.
ولكم يشبه الحب الثلج!
نقاء مطلق في اليوم الأول..
آثار أقدام كثيرة في اليوم التالي..
كرنفال الهباب في اليوم الثالث..
ثرثرة وبقايا وأوساخ،
ويهرب الحب من نافذة الأفق ليستحم في نهر جديد..
لا نحب أن نعترف.
كم يشبه الحب الثلج!
يظل جميلاً ما دام بعيداً عن الناس،
لم تطأه قدم إلا في الحلم..

★ ★ ★

هل الثلج تنهّد الفضاء
في لحظة عشق استثنائية بينه والأفق؟
أم تراه حلم الغيوم البيض،
بتقبيل الشفاه الزرق للبحر؟

هل الثلج غزو الزهور النقية لربيع سري؟
أم غبار كواكب نائية يقطنها المحبّون وحدهم؟
هل الثلج استحمام النجوم بمطر الدهشة،
أم أبجدية الصمت لروائية تجهل كيف تبوح بحبها على الورق،
ويتناثر الريش الأبيض لنوارس كلماتها الضالة؟
هل الثلج بصمات أصابع شاعر عبقري يخطّ على صفحة المدينة
قصيدة البياض المطلق،
أم تراه بصمات العشاق الأبرياء على أفق الفراق البارد؟
هل الثلج قرع أصابع بيض لامرئية على أبواب حقول الشوق،
أم هو قطن لجراح الذاكرة يندفه الغرباء؟
هل الثلج عربتك
وأنت تتزلج على جرح قلبي؟
للثلج شمس لامرئية تشرق ليلاً،
لا يراها إلا البوم..
فتتسع عيناه من الأفق إلى الريح.
ولا يراها إلا المستذئب الجميل،
فيعوي طويلاً قرب عنق الحبيبة،
حيث يمتزج الحب بالموت.
يقول الثلج: خبىء حبك الأبيض ليومك الأسود!..
تقول للثلج: الحب كالورد، إنْ قطفته مات،
وإنْ لم تقطفه مات أيضاً!

رسالة ذاكرة غير مثقوبة

أحببتك ذات يوم بجنون
لأنني معك وحدك..
كنت كلما هبطتُ حلّقت!

١٩٩١/٣/١

رسالة خرفان الغربة

قبل أن أنام، لا أحصي الخرفان..
بل أحصي أحبّائي الذين فارقتهم..
يقفزون وجهاً بعد آخر من المراعي إلى المنافي،
يتناثرون في الاتجاهات كلها.
أحصيهم جرحاً جرحاً، ولا أنام.
أقضي بقية الليل وأنا أسبّح بحمد «الفاليوم» وسمومي الملوّنة
المنوّمة الأخرى.
أتساءل كيف صار أحباب الأمس خرفاناً في متاهات الغربة؟
وحين أغفو،
أجدهم بانتظاري على الضفة الأخرى،
فأتابع إحصاء وجوههم لعلّي أنام داخل نومي!

١٩٩١/٣/١

رسالة على كف

كنا معاً في المقهى،
وأنا أرتشف نظراتك وظُرفك في فنجان قهوتي،
حين جاءت العرّافة وأمسكت بكفي
لتقرأ لي طالعي..
فقلت لها أن تقرأه لي،
ولكن... في كفك أنت!

١٩٩١/٢/١١

رسالة «بلاغ رقم ١»

لأنني لم أولد، وفي فمي
ملعقة من ذهب مملوءة بدواء مخدر..
لأنني ولدت بسعال مقلق كنحل الأسئلة،
وبين يديّ محبرة تشبه اللغم، وقلم يشبه السكين،
قرروا أنني طفلة مفخخة بالمجهول
إلا إذا استطعت إثبات براءتي كل يوم...
كل يوم، أهرب منهم إلى سفينة نوح..
في طريقي أرى قابيل يقتل هابيل،
وآدم يراقص الأفعى متّهماً حواء بخيانته مع تفاحة!
إبليس يعزف على قيثارته،
نيرون يصفق معجباً وهو يدخّن المدينة في غليونه،
عطيل يقتل ديدمونة..
أهرب وأنا أعرف أن علي أن أدفع ثمن خطاياهم جميعاً،
لمجرد أنني امرأة!!

★ ★ ★

ها أنا أعلن «البلاغ رقم ١» على قدر التثاؤب والغبار..
أفتح أبواب سور روحي لتنطلق أصواتي هاربة،

وتهرول حيواتي الداخلية بعيداً عن أعضائي المقيّدة بقميص المجانين!

ها أنا أتقمص قلماً ينزف حبره بهدوء،

وهو يتعلّم كيف يترجم شهية الطيران صوب المستحيل

إلى لغة مكتوبة فوق البياض اللامتناهي للورقة..

فالنساء والزنوج والعبيد السخرة يحلمون بالتحليق أيضاً.

١٩٩١/٢/١١

رسالة من موت يرفض موته

قال لي مشفقاً: تحبين بيروت؟
اتركيها لجمعيات دفن الموتى، ومستشفيات المجانين،
وملاجيء العجزة والأيتام..
دعي الموتى يدفنون موتاهم،
وارحلي معي إلى جزر النسيان..
نرحل، وتظل قطاراتنا تقيم داخل أنفاقها، لا تتقدم ولا تتراجع.
لم نعد نعرف الضوء حقاً ولا الظلمة،
معلّقون نحن على حافات الأشياء، بلا سقوط ولا تحليق،
في منزلة بين المنزلتين:
خارج الموت والحياة، داخل الاحتضار البطيء..

★ ★ ★

نحن عشاقك،
آه، لو كان بمقدورنا أن نعيد الزمن إلى الوراء. ننتزع كل رصاصة من قلب صاحبها البريء، وكل طلقة إلى رشاشها وكل قذيفة..
لو نعيد الأطفال المحروقين إلى أرحام الأمهات.. الشباب المقتولين إلى الطفولة.. الفرح إلى الشواطىء.
لو تنتصب البيوت المهدمة. لو تعود المدينة المضروبة بالطاعون والنار إلى ألوانها وحلّة عيدها. لو تموت الطحالب عن الخرائب

وتنهض الأسواق إلى عيدها وقد غادرتها كرنفالات الأشباح المسلحة في مواكب السوريالية السياسية..

نريد أن نعيد الزمن إلى الوراء، كي لا تكرر المدينة خطاياها، مستسلمةً لأنياب خاطفيها إلى البشاعة..

وهم يتابعون حروبهم المركبة فيما بينهم ولا يُجمعون إلا على قتل الأبرياء والعُزَّل والبسطاء..

★ ★ ★

رحلنا مرة يا بيروت، وظللتِ معنا. فالبسي أسماءنا في أصابعك حرفاً حرفاً كالخواتم، ثم لوّحي بقبضتك غاضبة لرحيلنا. سنظل نحبك حب الشجرة لصاعقة التهبت بها ولما تنطفىء بعد. نفتقدك بحنين قميص المجانين الأبيض إلى سجينه الهارب..

ها هي أعمارنا قطارٌ سائقه أعمى، راكض بنا إلى حيث لا ندري. أزماننا مراكب هاجرت من أفقها المرافىء فتزوجت من الأمواج العاتية..

عمري ألف رسالة حب لم تكتب لعينيك، وصرخة صمت مدوية كالرعد... عمري التهاب الرماد بين جنون وآخر، وذاكرة تطعن النسيان بخنجر الوفاء..

عمري، كعشّاق بيروت كلهم: موت يرفض موته!

١٩٩٠/٢/٢٠

رسالة إلى امبراطورية الياسمين

أرشف قهوتي وأنا جالسة في المقهى الباريسي، وأتذكر أنني في مثل هذا اليوم منذ أعوام أو لحظات أو قرون فارقتك يا دمشق..
يفيض شوقي كدمع في الحنجرة، إلى طفلة مشاكسة لا تزال تمشي تحت المطر إلى المدرسة في «شارع الصالحية» حتى «الجسر الأبيض».
أرشف قهوتي وأهز برأسي موافقةً على كل ما يقوله رفاق الجلسة ولا أسمعهم!
أتابع بنظري تلك الطفلة النحيلة وهي تقفز في برك الماء الموحلة بدلاً من تحاشيها.. وتقف تحت المزاريب في درب عودتها إلى البيت وقد حفظتها مزراباً بعد آخر بين المدرسة و«ساحة النجمة»، مروراً بـ«الشعلان» حيث المزاريب أكثر غزارة من «شارع البرلمان» أو «الصالحية».
لا أرى زحام السيّاح خارج نافذة المقهى في «ساحة النجمة الباريسية»، بل أرى بوضوح بيوت الجيران وآل العرقتنجي ومورهلي وقباني وعنحوري وأيبش وعجة و... و..

والطفلة تقف تحت آخر مزراب في «ساحة النجمة» الشامية بحذر كي لا يراها أحد الجيران و«يفتن» عليها عند والدها، تلك العفريتة النحيلة المشاغبة عاشقة المطر والوحل والمزاريب..

أتأملها،
ويبتلّ شعري بالمطر، وأنا ما زلت جالسة تحت سقف المقهى الباريسي، ولكن في عراء الذكريات.. أرى رفاق الجلسة ولا أبصرهم.. أسمعهم ولا أسمع غير مزاريب الشام.. وقهقهات الطفلة وهي تقفز كالجنية في آخر بركة وحل.. ثم ترشو جدتها بياسمينة مسروقة كي لا تقول شيئاً لوالدها.

★ ★ ★

الروعة تصعقنا، نتوهم أننا نحلم، أو نتمنى لو نموت! هذا ما أشعر به أحياناً حين أفكر بالعودة.
في العيد التذكاري للفراق أتكيء على شجرة الياسمين العتيقة كعكاز، وأمشي في شوارع التشرد المزروعة بفخاخ الغربة، والعيون المفروشة بالألغام. وفي الليل ألتحف بحنان ياسمين الذاكرة وأنام في حضن دمشق.
رحلت طويلاً في مراكب الشوق حتى ألفت الأمواج العاتية وصرت أخاف رغد المرافىء، ونسيت مرساتي طعم النوم في رمل السلامة.
صرت أخشى أن أعود ونلتقي،
وأخسر توقي الناري لحضورك وامتلائي بغيابك يا دمشق.
يتحوّل شوقي إليك إلى عصفور أبيض ذهبي العينين يحلق بعيداً صوبك ليأكل من يدك قمح الحنان ويطير من جديد.
أخشى حضورك في حياتي وغيابك عن محبرتي. فلولا جنوني الاستثنائي بك لما اشتعلت حروفي راكضة على الورق كزرافات شبّت فيها نار لا تموت ولا تحيا، نار زرقاء هادئة ومستمرة كما

لو رُسمت على لوحة وتجلّدت..
كما تخشى البراكين فتور نارها الباطنية، وكما يخشى السمندر غياب الشمس، وكما يخشى الليل رحيل نجومه، أخشى غيابك عن جنون محبرتي..
وكل ما كتبته وسأخطّه صدى لوقع خطاك في عمري، أنصتُ إليها كما تنصت الحقول لانهمار المطر..
أخطّ لك داخل رأسي عشرات رسائل الحب الجميلة. وحين أحاول تسطيرها على الورق تهرب من حنايا لهفتي، كما يهرب حلم الليلة الماضية من التذكّر والنسيان معاً.

١٩٩٣/٩/١٧

رسالة ضد الشيزوفرانيا

لماذا أحبت الحياة الموت،
فالتصقت به، لا تفارقه إلا لحظات؟
لماذا عشق الفرح الحزن،
ولم يعد أحدهما يأتي منفرداً
إلى ولائم القلوب؟
ولماذا كان على جرحي
أن يهوى مدينة لم تعد موجودة،
ورجلاً يموت كل يوم عشرات المرات...
مخطوفاً ومقصوفاً ومذعوراً ومهاناً؟
كأية مواطنة متلبسة بالصدق،
أعلن أنني تعبت من انفصام الشخصيات،
والشيزوفرانيا السياسية...
تعبت من انفصام الأرض عن الوطن..
وانفصام الدين عن الله..
وانفصام الإنسان عن المواطن..
وانفصام السياسي عن الأخلاقي..
وانفصام المقاتل عن القضية...
وانفصام الحرب عن ساحة المعركة الحقيقية...

★ ★ ★

كيف أنسى عذوبتك وهي تتسلّل كل ليلة إلى وكرها هاربةً من وحوش الشوارع والبطولات المزوّرة، وملصقات نعوة الحلم، ومكبرات صوت الزيف وهي تعوي من السيارات لتوقظ النائمين بعد القصف خوفاً من ذهابهم إلى الحلم؟

كيف أنسى عينيك الشفّافتين بأهدابهما الذهبية، «المكسورة» بتبغ «الجيتان» والأرق في ليالٍ مطلقة السراح؟

ثمة شوارع ممدودة من الضباب إلى الضباب، ووجوه متراصّة كالنمل، وقطارات تسلّمني إلى محطات الثلج وغاباته وفنادقه ومقاهي المطارات، وغرف مجهولة أصحو فيها وعبثاً أتذكر أين أنا..

ومدن تدخل مرايا السفر مرتدية غبارها.. وحانات... وشهقات.. وأصابع. تعبر كلها عيني دون أن تمسح صورتك: ذلك الصفاء الحلمي، عذوبة الألفة.. ويدك التي كانت تقرع بابي صباح الأحد بطرقات مميزة الموسيقى، حاملةً نعاسها وكعك العسل..

إفتقدك.. وأكره أن أقولها كي لا تكون مسؤولاً عن.. عن ماذا؟ عن أي شيء.. فالحب يوهب مجاناً، ولا يريد مقابل حضوره، غير حضوره..

١٩٩٢/٧/٧

رسالة البدوي الجميل

أرسل إليها من بلده الصحراوي بطاقة بريدية، كتب فيها بيتاً جميلاً لشاعر عذري قديم من أجدادنا يقول فيه:

إذا طلعت شمس النهار فإنها
أمارة تسليمي عليك، فسلّمي

وأضاف قائلاً في بطاقته: أرأيت رقة هؤلاء القوم الذين يصفهم بعضهم بالجلافة؟ فإذا بصرت بشعاع ينفذ من ضباب باريس فإنه أمارة تسليمي عليك، فسلّمي!

١٩٩٥/١٢/٨

رسالة من العصر الحجري

يصعد الحزن إلى رأسي كالجعة،
كلما زارتني عيناك في الحلم، وتركتا فوق ترابي بذور الأشواق
المستحيلة، وما أكثرها في حقول جنوني الليلي!
ها أنا أخرج من جسدي،
أتأمله مغمض العينين كنائم،
أودّعه لأركض تحت مطر اللانهايات حيث لا مظلات.
أريد أن أعود إلى الحياة مرة كل نصف قرن لأرى ما يفعله
الحمقى بالبحر الذي أحببت، والوطن الذي عشقت، وغابات
الأرز والتبغ وأنهار العسل واللبن والبكاء!
أريد أن أرى إلى أين كانت تمضي تلك القطارات التي ركضت
فوق جسدي جيئة وذهاباً!
أريد أن أدس بأنفي
في الحياة الشخصية لذلك العجوز المهرّج العُصابي المصاب
بفقدان الذاكرة الملقب بالتاريخ،
لأرى إلى أين يمضي بدمنا وأحلامنا وأحفادنا وهو يهرول بين
القرون والقارات بجزمته العسكرية،
والأوبئة والحرائق تسيل من أطراف أصابعه المرتجفة بالزلازل.
يا صديق الحزن: حبّك أفيوني!

١٩٩٥/١٢/٨

رسالة على سجادة عجمية

ها أنا أمرّغ جبيني في حرائقك.
ها أنت تغطس في ليلي العميق أميراً لظلماتي.
أجيء إليك. أمضي عنك،
لا يتبدل حرف في لوح حبنا المحتوم.
ترحل عني. أغدر بك،
يقطع سيّافك عنقي،
يتدحرج رأسي على أرصفة زمنك،
لكنني أظلّ أتدلى من عنقك تميمة حب،
وتظل تعويذة في معصمي وقدراً في معجم أيامي،
قمراً غرائبياً مربعاً، ظلّه شطآن تركض فوق روحي،
بحار تسبح في مغاوري حتى الإغماء.
أطرّز رسائلي إليك مثل سجادة عجمية مسحورة، ألوانها قوس قزح..
أطويها واضعها داخل حبة فستق أتركها على طرف ليلك!
معك تبدو المعجزة روتيناً:
أمشي إليك فوق الماء ولا أغرق!

١٩٩٥/١٢/٨

رسالة بالحبر السري

ها نحن نلتقي من جديد في مؤتمر القفازات البيض والأقنعة والياقات المنشاة.
أسألك عن اسمك كأنني لم أرك من قبل وتسألني عن اسمي.
«كأني ما لثمت لها شفاهاً / كأني ما وصلت ولم تصلني»!
ها هو المختار، يتلو مراسيم التعارف جاهلاً ما كان بيننا، فنتبادل التحيات اللزجة المحايدة.
هل ختمنا حقاً ذاكرتنا بالشمع الأحمر،
ووقّعنا ميثاق البلادة في مهرجانات الأصول؟
وحتامَ أمشي في ثيابي الرسمية كمهرّجة في السيرك على حافة ياقة قميصك المنشاة الحادة كالسكين،
شرط ألا أسقط في هاوية الصدق، وأبوح؟
لا أريد أن نستسلم لغبارنا،
نسترخي داخل الجبس المحيط بأيامنا المكسورة بعدما طحنت عربات الزمن عنفوان حبنا.. وروّضنا سوط الأيام كأفيال السيرك الهرمة.
لا أريد أن نكتب لنتغزل بالتثاؤب،
وننسى كل شيء عن شروق القمر على أجنحتنا يوم كنا نطير في فضاءات الحرية الرحبة بين شواطىء لبنان وجباله وحقوله.

لا أريد أن تتغزل بعكازك، وأجامل قيودي،
أزيّنها بالشرائط الحريرية وأكتب فيها قصائد المديح الموزونة المقفاة . .
كي لا تفوح من حروفنا رائحة أدوية التحنيط .
لا أريد أن ننضم إلى الذين كنا نسخر من خواء حياتهم ونسبح إلى الشاطىء الآخر بعيداً عنهم وهم مسترخون في قوارب التثاؤب .
لا أريد أن لا يخفق قلبانا لوردة أو نجمة،
بعدما زرعنا مكانهما الآلات الحاسبة والبطاريات والعدّادات الالكترونية .
لا أريد أن نبتلع أقراص الفيتامين والمنبهّات،
لنكتب بنشاط كثيراً من النعوات في عمود «الوفيات الحية» .
لا أريد أن يصير لساني حقيبة لغات لببغاوات لم تعد تتقن التنهّد وصرخة الفرح .
لا أريد أن أصدق أن زمن الأحلام الذي انتظرناه قد عشناه وانتهى الأمر دون أن نلحظ ذلك .
أريد أن يظل حبنا ملتهباً بكل ما فيه من حرائق وألغاز ومتاهات وشهوات لفتح الصناديق المحرمة وتحديات سارق النار، واللغات المستحيلة .
ترى، هل ما يدور بيننا من فتور خامل
انعكاس لزمن مشابه في تلك الشطآن البيروتية التي شهدت بدايات حبنا؟
وهل تاريخ الوطن هو جغرافيا القلب وتضاريس الحب؟
وهل . . وهل . .

١٩٩٥/١٢/٨

رسالة المرايا المكسورة

أحبك لأنني لا أعرفك،
لكنني بمعنى ما أعرفك.
لا أستطيع أن أحب رجلاً يجثم على صدر حياتي،
يخطّط لي تسريحة شعري،
لون ثيابي وسيناريو أحلامي وكوابيسي،
يرسم الخطوط الحمر لما قد أفعله داخلهما.
لا أستطيع أن أحب من يحاول امتلاكي ثم يتوهم ذلك حقاً مرصوداً.
لست جناحاً: أنا التحليق. لست غريبة: أنا الغربة.
لست حرة: أنا الحرية.
ثمة عبارات تضحكني مثل عبارة «سأحبك إلى الأبد» و «لن يفرّقنا شيء». فالأبد هو الآن.
وكل شيء يفرّقنا بدءاً بدهاليزنا وأسرارنا وأشيائنا الصغيرة وعاداتنا، وانتهاء بأمزجتنا الغامضة الهزلية التي نتستر عليها، وزرقة صمتنا البارد وابتساماتنا الماكرة المثلجة.
في الظلام حين نخاف، لا ننشد أغنية واحدة. ومأساتي أن مقولة «لن يفرقنا شيء» تضحكني بصوت مرتفع حتى في حفلات التأبين الوقورة!

المرايا المكسورة تخيفني حين أحدق فيها،
ربما لأنها ترسم وجوهنا الحقيقية..
من الداخل!
إنه زمن الأشياء المكسورة..
زمن الشجار بين القلب وماضيه..
بين الفوضى الهذيانية الجميلة والترتيب الصغير العانس..
بين الأوهام الكبيرة والواقع الضئيل..
بين صوت سيمفونية بيتهوفن والتجشؤ..
بين جلال صوت الرعد وصرير مولّدات الكهرباء..
بين عناق الأصابع السري ومصافحة القفازات..
أحبك لأنني لا أعرفك،
جسدك لا يحول بين روحي وبينك.
إنه حب هائمين في الزمان أفلتا من قوانين القبائل..
لم يكن بوسعك أن تضرم النار في عمري،
لو لم تشعل عود ثقابك في قارة أخرى بعيدة عني!

١٩٩٤/٤/٢٩

رسالة امرأة الخطيئة البريئة

في قصور الرماد أقيم،
لكنني أتقن الرحيل مع النوارس لمغازلة الغربات في البحار
كلها.
لا أريد لجرحي أن يلتئم،
لأنني أعجز عن الكتابة حين أنام بلا كوابيس!
مرة حاولت أن أصادق حبك،
كما يصادق الجرح رصاصة أدمته.
مرة، حاولت أن أصادق موتي بك،
لأكتشف معنى لحياتي معك.
وكنا نتذمر ونتشاجر،
ولم نكن ندري أننا نعيش أحلى أيامنا..
اليوم صار قلبي مملكة لعاشق وحيد اسمه الرحيل!

★ ★ ★

كان حبك خطوات تفتش عن قوس قزح،
وكنت أحب المقامرة بحياتي مع المجهول..
فقامرت عليها بحبك،
وربحت موتي الجميل غرقاً في محبرتي وذاكرتي..

تعال معي إلى الرياح . .
ليست لدي أية وعود مشرقة أقطعها لك على نفسي،
غير نزهة في الظلام الشهي،
تدوم ليلة أو عمراً . .
التفكير بك، ضوء خفي،
وليمة هذيان وجنون مستعادة.
استحضارك في الذاكرة: خطيئة بريئة!

١٩٩٤/٤/٤

رسالة امرأة الانتظار

في قلبي مغاور ومغاور،
ستمتلىء كلها حين تزورني.
ما زال جسدك بحراً.
وما زلتُ سمكة ضالّة.
وما زال حبك فخاً شهياً،
أحتال على نفسي كي أسقط في براثنه!
في «سونا» الأمسيات البيروتية الصيفية،
أدلّك أحزاني عضواً عضواً،
حتى ينبجس البكاء كالنبع النقي..
وأنا أنتظرك،
وغيابك ممتلىء بحضورك الخفي!

١٩٩٤/٤/٢٩

رسالة امرأة الذكريات

منذ ألف عام كان ربيع، وأحببتك..
وباركتنا البراعم وعصافير الفجر.
اليوم، أينما كنت وكيفما كنت أتذكرك مع الربيع،
تهبّ رائحة زهر الليمون عليّ حتى وأنا في عرض البحر.. فهي
عبير أيامنا معاً..
آه الأبجدية المراوغة..
الأبجدية الزئبقية التي لا تقول شيئاً...
الأبجدية المخملية الثعلبية التي استنجدنا بها ونحن نقول وداعاً،
دون أن ندري لماذا نريد أن نفترق ونغلق الباب خلفنا إلى
الأبد..
اليوم، تهطل التنهّدات من الأشجار،
كلما مرّ عاشقان نضران كما كنا منذ ألف عام..
وتتذكرنا الريح..
كان ثمة ما هو استثنائي في حبنا،
ونحن نسترق البكاء الضاحك..
نتجرع الفراق في كؤوس الحب المجنون.
واليوم تنتحب الشوارع،
التي طالما قهقهنا فيها على طول الليل وعرضه وعمقه،

بين زمن الألعاب النارية وزمن النار المستحيلة . .
التقينا ذات يوم في ميتم الحزن،
ثم رحلنا إلى فنادق التشرد . .
الليلة، يستضيفني الحنين، فلا أرى في مراياه إلا وجهك .
أروح وأجيء على شرفات مأهولة بالذهول،
وبين أهدابك تستيقظ نزواتي .

١٩٩٤/٤/٢٩

رسالة بالشيفرة

حبك صيف وشتاء على سطح واحد، وهذا يمتعني.
معك، رأسي في القطب الشمالي وقلبي في خط الاستواء،
وداخل لحظة واحدة،
أحبك وأكرهك في آن.
حبك ترياق مكتوب عليه: ترياق الحزن.
طريقة الاستعمال: ملعقة قبل الموت كل ليلة.
معاً أنصتنا لهذيان النجوم والأمواج على جسدينا.
ما يجمعه البحر والليل، لا يفرقه الناس!
تلك الدروب التي مشيناها،
لم تغادرها خُطانا بعدما رحلنا بعيداً عنها.
تلك الغابات لا تزال تحفظ لون عينيك ورقم سيارتك،
والجبال لا تزال تسأل عنا.
وفي الشواطىء ومرتفعات أشجار الأرز ما زلنا نهيم،
ومع ضوء الفجر تتناثر آثار أقدامنا على الدروب الجبلية،
وفوق الرمال البحرية كالغبار.
لكنها تعود واضحة المعالم لعيون الليل،
مثل كتابة بالحبر السري على جسد لبنان،
لا تمكن قراءتها إلا في العتمة.

لا نزال هناك معاً . . بالرغم من أن كلاً منا في قارة أخرى.
الثملون كلهم يقسمون . .
أنهم يشاهدون كل ليلة عاشقين في ضوء القمر الشبحي يُشبهاننا،
يذوبان مع الخيوط الأولى للفجر.
وفي الظلام الدامس،
أحدق في مرآتي، لأراك!
تقدم لي ترياق الحنين الحزين،
فأتجرع ذكراك ملعقة قبل الموت كل ليلة . . .

١٩٨٩/٤/٤

رسالة تتطاير في الريح

يهبط المساء وسقف الفندق معاً،
فوق صدري . . .
يتطاير غبار السفر من شعري وأظافري: .
يسيل البكاء من حقائبي،
التي صويت فيها بيتي على عجل . .
يداعبني ثور الحنين بخرقة حمراء بالندم،
يلوح بها أمام وجهي،
وأقرأ عليها اسم بيروت . .
أرى أحلامي العتيقة هناك تسقط في الهاوية وتتحطم كمرآة نسيتُ انتزاع وجهي منها . .
أرى حيواتي وأعماري تتطاير في الريح مع أوراقي . .
بيروت تغادر نخلها وتفاحها لتنطفىء في بحرها كلفافة في فنجان قهوة . .
كان حبك فناء يفضي إلى الانتحار . .
عشقك مساء يقود إلى ليل الغربة كحب بيروت: منفى يفضي إلى أبجدية الحرائق.
قلت لي مرة: سأرحل بعيداً . . لن أدع دمي يغسل أرصفة بيروت الملوثة بأحذية اللصوص المسلحين بالأيديولوجيات والمتوارثات معاً . .

لن أتحول إلى ملصق على الجدران لحمقى يتاجرون باستشهادنا في بورصة «الوطنيات»..
يقولون القضيّة ويجعلونها المطيّة.. يقولون الثورة ويضمرون الثروة..
سنرحل بعيداً عن بيوت تتجسس علينا فيها الجدران والنوافذ..
ليلة الرحيل، أضرمتَ النار في حقيبة سفرك، تحولتَ إلى بيت يقطن بيتاً!.. ورحلتُ وحيدة..

★ ★ ★

ها أنا أخلع عني قوارب الهرب،
وثياب الحرب..
وأحاول أن أطوي دفاتر عينيك..
ها أنا أخلع الجدران المثقوبة بالصواريخ..
أخلع قميصي المضاد للرصاص وتعاويذ جدتي..
أخلع بكاء الأطفال وصفير القذيفة من أذني،
أخلع حرائق البيوت والقمامة..
أخلع غطرسة المسلحين ومتسوّلي المناشير المقدّدة في مجلات وصحف تباع بالإرغام..
أخلع صوت تكسّر آنية بحجم الأفق فوق شوارع المدينة...
أخلع صيحات الغطرسة الميليشياوية وصوت إدخال الطلقة في بيت نار «الكلاشينكوف»: الكلمة الحاكمة..
أخلع نواح الأمهات في المقابر وهذيان الأطفال في الملاجىء..
أخلع هدير الجياع أمام أبواب الأفران، وهدير المذياع المسبّح بعظمة رب المذابح..

أخلع ذلك الماضي الملطخ بالخديعة وأرتمي في المغطس المرمري. فتذوق مساماتي طعم الماء بعد طول عطش..
أكتشف معجزة صغيرة منسية اسمها الصابون المعطر وأُسبّح بحمد البخار!..
باريس تحت النافذة حلية من ضوء وعاج وذهب وقوس قزح..
ها أنا ألفُّ جسدي الذي داسته أحذية المسلحين وجنازير دباباتهم، وأحيطه بمنشفة حريرية مطرّزة بالألعاب النارية، وأرشق العطر على عنقي..
تشهق دهشتي: ثمة مفتاح يتدلى على صدري،
ملتصقاً بعظامي كأنه امتداد لها:
إنه مفتاح بيتي في بيروت..

١٩٨٩/٥/٥

رسالة إلى زوربا الفصول

ها هو يعود،
فدعوني أقبّل عينيه وأستسلم لأحضانه.
أدسّ وجهي في عنقه، ذلك الخريف الباهي.
أستنشق ألوانه، أتأمل عبيره، أشرب ضوءه.
أقول له إنه جميل.
أزحف بين مساماته، الذهبية الداكنة.
وأنا أهمس لجلده الذي يتعرّق عطراً ومطراً: أحبك.
أحبك أيها الشيخ العابث الذي يستقبل الشتاء وهو يرقص لامبالياً..
أحبك يا زوربا الفصول،
يا من يعيدني كل عام إلى «دهبيات» دمشق اللانسية في غوطتها..

١٩٩٥/١٠/٢٠

رسالة من داخل حبة فستق

ولدت وفي فمك ملعقة من ذهب
لم تخترها،
وكدت تختنق بها بقية حياتك!

أيها الطائر العذب، المرتجف أمام هول الفخاخ
بإباء مقاتل له طباع شاعر.
أحب غرور منقارك وهو يتحدى الصاعقة،
وكبرياء ريشك نصف المحروق..
كم أنت محبوب في حقولي.
فزّاع طيوري يتواطأ معك،
يرقص حين تطأ براري روحي،
بينه وبينك حب خاص حزين حتى الحنان.
حضورك شفّاف ونادر،
فأنت كالضوء بلا وزن، لكنك العمود الفقري لأيامي.
بك يصير جنوني متعة لأنك ترغمني على ممارسته بتعقل!
ثمة صباحات،
أستيقظ فيها ولا أعرف أين ينتهي رأسي وتبدأ وسادتي،
أين ينتهي جلدي وتبدأ ملاءات سريري.
أظل مرميةً مثل ظلٍ خلّفه صاحبه على الرصيف ليلاً ومضى،

حتى أسمع صوت اختناقك اليومي بلفافتك الأولى،
فيلملم جسدي أعضاءه ويلصقها بعضها ببعض.
وأنهض حماسةً إلى ابتسامتك،
تصير قهوة الصباح طقوساً بدائية،
في هيكل الأنس النادر تحت سماوات غامضة،
محاطة بمستنقعات الرمال المتحركة.
أيها الضوء العذب الشفاف الذي تقمّص طائراً،
لا تحرّك عنقك كعصفور دوري ضيّع شجرته!
لا تخف من فخاخي، فأنا لم أسمم لك قمحي بعد!
أفتش عن أبجدية تحتوي حبي لك احتواء القفاز للأصابع.
أفتش عن صوت لحنجرة أشواقي ولا أجد غير صوت الصمت.
كيف أقول لك حبي الجديد باللغة العتيقة ذاتها؟
معك لا شيء يدهشني،
أيها الطالع من حكايا الجدّات وأساطير ألف ليلة وليلة بكل ألفتها
وغرابتها.
معك أركب بساط الريح،
وأربط حزام المقعد كما لو كنت في طائرة «بوينغ» مألوفة.
معك، تبدو الإقامة داخل حبة فستق
أمراً تقليدياً.

١٩٩٥/١٠/٢٠

رسالة إلى طاووس أبجدي

وجلسنا في الفندق السويسري جنباً إلى جنب،
مثل قميصين مهترئين على حبل غسيل.
أكلت الشمس ألوانهما،
ونهشت الكلاب أطراف أكمامهما.
وتحاورنا بكلمات حذرة تمشي
على رؤوس أصابعها في حقول المشاعر المفخخة،
والهواجس الملغومة بالمصالح.
كنت تتجشأ مجدك،
متخماً بعظمتك،
تنفش ريش احتفالك بذاتك،
طاووساً هرماً كالح الألوان،
يعيش داخل مهرجان يومي تكريمي لذاته،
يتعاقب فيه الخطباء ليل نهار وسط مرآتك،
لهم كلهم وجهك وصوتك!
وكنت أبحث عنك داخل جسدك ولا أجدك.
أفتش عن نبضك داخل يدك
المتحجرة كما في المدن «الفيزوفية» لما بعد البركان بعصور،
وأكاد لا أصدق.

أهذا هو الوجه الذي أشعلتني مصابيح عينيه يوم كنت مراهقة؟
أهذا هو الفنان الذي كتبت له أحلى سطوري
في طائرات راكضة بين مدن الغيوم،
وناديته في حلكة المنافي،
وتعذبت حين توهمت أنني أسأت إليه؟
أهذا الجسد المتورم بالبلادة،
كسمكة قرش ميتة لفظها البحر
المترهل مثل كومة من الأمعاء،
هو نفسه تلك الفراشة / النحلة؟
أهذه القامة المثقلة بحمل عظمتها،
هي نفسها تلك النخلة السامقة
التي كنت أستظل بها منذ قرون في صباي الأول؟
ولماذا تفوح من فمك رائحة النفتالين؟
ومن جلدك عقاقير التحنيط وأدوية حفظ الجثث؟
وهل تنام ليلاً في براد مكيف الهواء بالأوكسجين،
والرماد يتساقط من أعضائك كريش الطيور الميتة؟
أهذا حقاً صوتك العتيق؟
وما الذي جعلنا كدميتين آليتين
نتحاور بصوت فرغت بطارياته؟
على المائدة المجاورة
جلس رجل يتأملنا، ويتلصص على حوارنا وهو يقهقه ساخراً،
وكنت أعرف أن اسمه الزمن!
لقد قلنا أبهى كليشيهاتنا، في تلك الأمسية الفظة لعمر معطوب.
لقد انتصر زبون المائدة المجاورة،

وغطى الثلج شرايينا كالصدأ.
صارت المسافة بين فمي وأذنك،
ربع قرن من إغماء الذاكرة، تحت رايات الفتور.
هل أنت ميت،
جاء لزيارتي من المشرحة،
وسينام الليلة بلا أحلام في برادات الجثث؟
حين مضيتَ شربتُ «كأسك» مع الزمن نخب انتصاره،
وانتصار ذاكرتي العنيدة كحمار،
التي تجرّني باستمرار بعيداً عن سرير النسيان،
وبعيداً عن نكران الحقيقة المرة أو تجميلها.
ها أنت تستعيض بالمجد عن الحب،
مثل مصّاص دماء هرم
اختار عضات الظلام المختلسة بعيداً عن الرحابة والشمس.
بخيل بحنانك على غير جلدك المقدد،
كالتمساح تتحرك ببطء وبحساب.
اطمئن يا صديقي،
ستعيش مائة عام من العزلة، وتموتها في آن!

١٩٩٥/١٠/٢٠

رسالة لم تُرسل

دنياك لا تخيفني . .
حين ولد حبنا اكتشف أسرته،
له شقيق توأم اسمه الألم،
وصديق اسمه الحرية، وقرين اسمه الموت،
وقدر اسمه الفراق ومطهر اسمه الحرف . .

★ ★ ★

لا أستطيع الوقوف في حضرة الورقة البهية،
ملوّثة بشهوتي لامتلاكك، وبأحقادي ومرارتي . .
وغبار حربنا المتبادلة تحت رايات الحب . .
(آه، كم يشبه سلوك العشاق مكائد الأعداء!)
كي أذهب إلى الورقة
عليّ أن أتوضأ بالسكينة، وأنوي على الصفاء،
وأصلّي على الصدق، بشفافية ذاهبٍ إلى موته . .
وأغفر لك ولنفسي ما لم يكن بيننا . . وما كان . .

١٩٨٩/١٢/٨

رسالة عاشقةٍ للحرية

دنياك لا تجتذبني . .
وها أنا أهبط من الطائرة،
وأمشي في مطار مدينة جديدة،
بين لافتات المستقبلين لزوّار مجهولين،
وأحمل في يدي لافتة كتبتُ عليها:
لا أعرف أحداً . . ولا أنتظر مخلوقاً . .
ولا أريد شيئاً غير . . حريتي . .
لا تسلني عن اسمي . . ربما كان لا أحد . .
لا تسلني عن وطني . . ربما كان اسمه: أوراقي . .
لا تسلني عن حبيبي . . . ربما كان اسمه: النسيان . .
لا تسلني عن أبي . . ربما كان اسمه: الغربة . .
سلني عن أمي . . وحدها أعرفها جيداً . .
واسمها الحرية . .

٩٨٩/١٢/٨

رسالة إلى عدن

عدن، آلاف النوارس تهب كالريح المرئية،
دفاتر بيضاء تقلّبها أصابع البحر..
عدن المحاصرة بالأمواج،
ومرايا الشمس وعطور «الكادي»..
هناك حيث الغبار فضّة المشرّدين أحببتك،
وفي منتصف الطريق بين عدن ولحج شبت النيران في أجنحتي.
منذ ذلك اليوم وأنا أمارس تماريني السويدية على النسيان،
وعلى التنصّل من «الفنار» الأسطوري فوق جبل «معاشق»،
وهدير الأساطير في المحيط الهندي،
وتلويحة يد السندباد وعلاء الدين،
ومحرقة شواطىء «أبين»،
ومدافع «صيره» في القلعة الأزلية،
وجبل «شمسان» الذي يطلع عليه قمران..
وداعاً أيتها المدن الحبلى بالوعود، والأحزان الولود،
المدن التي تطلق الرصاص على زغاريد النساء ودمى الأطفال،
المدن التي تنجب البكاء والغبار والفقر،
والأحلام المجهضة وقدّيسي التشرّد والأغاني الدامعة..
من زمان قطعت شريان الأشواق،

قلت فلينزف دم الذكريات قطرة قطرة،
سطراً بعد سطر، حتى آخر السطر . .
لكن رياح الماضي تقلّب الصفحات.
ونزيف ما كان لا يتوقف.
عدن، حبك منارة شعلتها النجوم . .
وشرفاتها القارات . . . وما من نجاة.

١٩٩٥/٩/٢٨

رسالة خائفة العينين

ها أنت تصرخ في وجهي،
صوتك حفنة من الأوراق الممزقة تتطاير في ريح مسمومة.
ها أنا أحدق فيك بصمت آنية من الكريستال مكسورة،
تناثرت شظاياها داخل كتب سطّرتها..
وفجأة يدخل الرجل الالكتروني،
على وجهه كمّامة ضد الغازات السامة لأنفاسنا،
ويبدأ بتحرير فواتير الفراق على الكومبيوتر.
يتصل بالمحامي عبر «الميني تيل».
يذيع النبأ بـ «الفاكسيميلي» على أطفال الأنابيب.
تتناقله الميكروفونات بالأقمار الاصطناعية، و «الإنترنيت».
تفوح من الأنفاس المخنوقة رائحة الغبار الذري وجراثيم الإيدز.
يتسلّط شعاع شرير عبر ثقب القلب والأوزون.
تنوح أصوات حديد المترو والسكك الفضائية اللامرئية للطائرات..
وبعد أن يقتل كل منا صاحبه، ويعربد على جثته،
يهطل المطر، فنصحو، ونهرب معاً من كل شيء إلى البحر،
كطفلين وحيدين في معامل العصر الجهنمية،
ونعرف أن لا فراق بيننا، في ميتم الزمان.

لا فراق بين دون كيشوت وسيفه الخشبي،
في مواجهة طواحين الهواء الالكترونية الذرية المفرّغة من الهواء!

١٩٩٥/١٢/٨

رسالة «مفكّسة» من رجل صريح

ما ذنبي
إذا كان الحب لا ينام بسلام في المقاعد الوثيرة،
ويهرب سريعاً من المخادع الزوجية؟
ما ذنبي
إذا كان الحب يحب لعبة الكراهية/ الولع،
ويتمدد باسترخاء في أرجوحة الشك/ اليقين،
تطيب له مفاجآت دهاليز القطارات
الراكضة في عتمة كهوف مدن الملاهي وجباله الوعرة؟
ما ذنبي
إذا كان الحب لا يعرف استقراراً إلا في الزلزال،
لا يتنهد استرخاءً
إلا وهو متربع فوق برتقالة فوق أنف بهلوان يتأرجح؟
ما ذنبي
إذا كان الحب كالمهرج،
نصف ضحكاته بكاء ونصف وجهه قناع؟
نصفه حب ونصفه الآخر كراهية؟
ما ذنبي إذا كان منشّطي الجنسي اسمه الخيانة؟
أتعاطف مع شهريار كرجل بلا أقنعة،

سيّاف شهريار
يُدعى الصدق،
والنساء فراشات،
يخلّفن ألوانهنّ البديعة على أصابعي كالغبار.
حين يحتضر بهاؤهنّ داخل قبضتي،
لا يبقى منهن عند الفجر
غير حشرات بلا ألوان ولا ألق ولا أجنحة.
ما ذنبي
إذا كانت كل شهرزاد
تمضي ليلاً إلى سريري أميرة،
وتغادره عند الفجر ضفدعة؟
سأظل أركض لأنني عاشق المرأة المستحيلة.
قد أمتلك ناطحة سحاب ومملكة تراب،
والليل والنهار،
لكنني سأظل أركض
لأنني أطارد ما لا أدريه،
وما لا أستطيع إدراكه أو احتواءه.
سأظل أركض، معذباً داخل قاع عظامي،
أكثر من العذاب الذي أسببه لنسائي كلهن مجتمعات..
وعند الصباح لا مناص: أبدّل هذه الصبية
التي تتأمل الآن نفسها في مرآتي،
ثملة بحبي وأكاذيبي.
ما لا تدريه: أنني عاشق،
ولكن للمرأة التي أعجز عن لمسها، المقيمة داخل المرآة،

التي تبدّل وجوهها باستمرار،
وأجهل كيف أخطو إليها لألمس أصابع يدها مرة، ثم أموت!

٩/ ٢/ ١٩٩٦

رسالة من ص. ب: غربة

في الصباح لم يوقظني صوتك،
فظللت نائمة.
كسروا الباب وقالوا إنني ميتة،
أشعلوا وجهي بوميض فلاشات التصوير،
وأكّد البوليس للصحافيين أنني انتحرت.
ولم يلحظ أحد أنني مت مقتولة..
وأن الحزن أطلق عليَّ رصاصة في جبيني.

★ ★ ★

كلنا نموت بيسرٍ،
دون أن نبذل جهداً لتحقيق ذلك!
لكننا لا نحيا حقاً، إذا لم نحاول المستحيل.
يناديني النهر: تعالي واغرقي..
تناديني البحار: تعالي إلى جزر الأسرار..
تناديني الريح: أنا صوت القارات المجهولة..
ألا تريدين الرحيل معي؟
تناديني الشمس: تعلمي حكمة العصافير،
فمهما حدث لها، تظل تطير..
يناديني صوتك حين أطالع حروفك،

وتنفتح على الورق شفاهك وتهذي . .
فكيف لا أرمي بصرّة الغربة عن كتفي
لأجرب غربة أخرى معك؟
وكيف لا أحرق مفكرة مواعيدي، والطعام في فرني؟
وكيف لا أقذف بالمنبه في فم التمساح ـ الزمن؟

★ ★ ★

لأنك تشبه الضباب، تخترقني،
وأمتلىء بك من حيث لا أدري . .
لأنك تشبه الصاعقة،
أجهل متى تُنشب فيَّ نارك أو ضوءك . .
لأنك تشبه الأفق،
يستحيل احتضانك أو امتلاكك أو تسويرك . .
لأنك تشبه الريح تخافك أجراسي . .
لأنك تشبه الماء الجامح تهابك سدودي . .
لأنك تشبه حمى الجنون تطلق هذياني . .
ولأني أشبهك أخشاك، أحبك وأكرهك في آن،
وأحدّق في زلازل أمزجتك كمن يحدّق في مرآة،
وأهمس لك داخل لحظة واحدة: أهلاً . . ووداعاً،
يا من يسقيني عطشي، فأرتوي!

★ ★ ★

أسير في شوارع الغربة وحيدة وممتلئة بك،
ولكن حرّة كالمطر المتوحش. أهطلُ حيث أشاء . .

على ضفة السين، أو فوق مقعد في مقهى لندني،
ليس ثمة من يعتقلني باسم الحب، ويستجوبني..
يسجنني أو أسجنه... ولكن..
في الليلة الأولى لموتي سأشعر بالوحشة قليلاً،
ربما لأنني سأفتقدك!

١٩٩٣/٤/٣٠

رسالة فراشة تحرق المصابيح

أخاف لعبة إيقاظ الموتى الملقبة حباً قديماً.
لا أجرؤ على طقوس إعادة الروح إلى الماضي الجميل،
وها أنا أترك غباراً قمرياً يغطي ذكرى ما كان. . .
رغم شوقي إلى ما كان. .
أمتشق النسيان،
وأظل أحبك ــ مع وقف التنفيذ ــ في آن.
مرة، غامرت بالإبحار في تلك الأنهار
التي تهدر داخل شرايينك،
فسلبتَني الريحَ والحرية،
أرغمتني على التحليق صوبك في أنابيب مفرغة من الهواء.
لم أكن راغبة في لعب شطرنج العواطف معك،
ولا حلّ الكلمات المتقاطعة لأمزجة قلبك،
كنت راغبة في شيء بسيط وكبير كالمستحيل،
اسمه الحب المشمس.
كان حبك وسادة محشوة بالكوابيس،
وبريش طيور كانت تحلّق صوب الحرية،
حين داهمتَها بحضورك الآسر،
وقصصتها كالسنبلة بابتسامتك. .

حبك شوارع لا يجرؤ الخط المستقيم على أن يخطو فيها،
جسدك فراشة خرافية مضيئة
تحرق المصابيح التي تلامسها،
حبك كتاب مليء بالأخطاء المطبعية والأكاذيب..
لكنني قلبت ذات يوم صفحاته المشتعلة،
وقد شبَّت النار في أصابعي وزمني،
وتابعت قراءته حتى الغلاف الأخير للرماد.
صوتك اليوم يعيدني امرأة أخرى مقهورة،
لم أعد أفتقدها وأنا أردد:
«يميناً لقيت الأمرّين من حماقة قيس».
أعترف أنني ما زلت أهيم بك كراهية،
وأنا هاربة بأجنحتي..
فقد حاولت مرة أن أكون لك نافذة،
فكنتَ لي قفصاً!
كنتُ في حياتك،
مثل فراشة مجففة بين دفتيّ كتاب،
حرمتها من الطيران، ولم تعلّمها القراءة!
ما من عصفور يستطيع التحليق عالياً،
إذا كان يحدّق إلى الخلف.. فوداعاً!

٧/١٠/١٩٩٤

رسالة من عاشقة الصحراء

يقول لي جلد الثلج :
حين تلمسينني أذوب!
يقول لي جلد الصحراء:
حين تلمسينني تحترقين بي!
ربما لذلك أحب الصحراء، لكنني أهرب منها إلى عزيزي الثلج!

١٩٩٤/١٠/٧

رسالة من جاسوسة أبجدية

أطالع حروفك كأنني أتجسس عليك، وعبر حروفك
أحصي دقّات قلبك واتجاه رياحك.
أعرفك عبرها: ضجراً أنت أم لا، مفلساً أم لا،
عاشقاً لي أم لا.. أجمل ما فيك
أن عليَّ أن أقبلك أو أرفضك،
دون أن أدّعي أنني قد خُدعت بك!
هكذا تمضي خطى الحب، يد تكتب بالحبر الصيني
وأخرى تمحو ما تخطّه الأولى..
عين تقول نعم، وجارتها تقول لا..
الفم حبة كرز. القلب تفاحة مُحرّمة، والفراق ضيف اللقاء.
فخذني إلى ذاكرتك كي أتقن نسياني..
لا تغادرني ولا تقطنني،
لا تلتصق بي ولا تهجرني.
كن قريباً وأبقَ بعيداً،
كي تترك مساحة للحلم والضوء بيننا...
فالحب طفل الحرية.

١٩٩٣/٤/٣٠

رسالة على طابع بريد

منذ زمن بعيد
وأنا أحب رجلاً لا أعرفه،
أحبه وأكرهه في آن
دون أن أعرفه،
كأنني جرم ضال بين الأفلاك،
عبثاً يتقاطع مداره مع روح شقيقة . . .
مرة أحببت رجلاً قرأت له، وكنت صغيرة
وكان اسمه بدر شاكر السياب.
حين كبرت بحثت عنه، وحين وجدته
كان يحتضر على فراش الموت،
ولم يسمعني حين قلت له: أحبك!
مضى، تحوّل من رجل
إلى طابع بريد،
وظللت أحب رجلاً لا أعرفه وأكرهه،
أنتظره انتظاراً دونكيشوتياً طويلاً،
وقد ألتقي به وأنا أحتضر. . كبدر،
وقد يقول لي: أحبك، ولا أسمعه ـ كبدر ـ
وسأكون لحظتها قد أقلعت في طائرتي الأخيرة

إلى حيث لا أدري . .
كأن الحب المستحيل، وعناق الحب والكراهية
داخل لحظة واحدة،
هو قدر مجانين الكلمة . .

١٩٩٣/٣/٣٠

رسالة من تاء مربوطة

منذ عرفتك، وأنا تاء تأنيث «مربوطة» من عنقها،
بين المقبرة والسرير.
وكلما مرّ بي سيّافك «مسرور»،
أتكوّر على نفسي،
فأصير سوراً مغلقاً بصورة دائرة: تاء مربوطة!
أجل، أنطوي وأتحوّل إلى تاء كالرحم..
أصير رحماً لذاتي كي أحميها من ذكورة كوكبنا..
تاء التأنيث المربوطة «مكسورة» دائماً،
لا تحلم ولا ترحل دونما سبب وجيه،
لا تتنهد ولا تكتب،
لا ترتدي الأحمر،
لا تقطف الأزهار،
لا تقف على الشرفة.
تاء التأنيث المربوطة المهذبة «مكسورة» دائماً،
وإلا عوقبت بـ«الرفع» على منصة الشائعات،
وبـ «التسكين» بحبال الألسن المشانق ـ الأفاعي.
لطالما عوقبت تاء التأنيث بـ «الضم» إلى الحريم،
أو بـ «الجرّ» مع الساحرات الشريرات الجاهزات للإعدام.

تاء التأنيث المربوطة،
تكتفي بممارسة قصائد الحب العذري مع قيس
على أن تتزوج سواه!
تاء التأنيث المربوطة ترتدي السواد
ولا تجرؤ على المشي إلى جانب شهريار،
بل تتدحرج خلفه في موكبه الحاشد نقطة سوداء،
أو تتكوم على جرحها،
تاء تأنيث أخرى مربوطة في الزاوية المعتمة،
ترمّم أسوارها المزرقة باللطمات..
منذ فارقتك،
تحوّلت من تاء مربوطة مثقلة بالأحزان،
إلى تاء «مبسوطة» للحرية،
تاء «ممدودة» على الرمل فوق الشاطىء الاستوائي بثياب الاستحمام
تاء «مفتوحة» للسكينة والحلم والأبجدية..

جزر هاواي ــ صيف ١٩٩٤

أفتح باب التفاحة وأدخل. .
أجدك في انتظاري عجينة من التوابل العربية،
وضوء القمر والأساطير.
فيك شيء من شهريار والشاطر حسن. .
فيك شيء من العبث الغادر الآسر والحزن
على حافة الدعابة والسخرية.
تقمَّصت الوسامةُ والشهامة والسخاء رجلاً
فكنت أنت،
زين الشباب إلى الأبد وسيد الرهافة والعسل.
حين تكون يشرق الليل!
مأساتي معك أن قلبك شاسع يتسع للنساء كلهن.
قلبك حريم لا يعترف بالتمييز العنصري
مرحّباً بالبيضاوات والسوداوات،
وقلبي خرم إبرة لا يمرّ عبره سواك.
حاولت عبثاً إغلاق باب التفاحة علينا،
لكنك علقتني على المشجب مع معطفك
والتهمت التفاحة في قضمتين،
ومضيت مع الأفعى إلى بستان تفاح جديد.

لحقتْ بك الأشجار والغيوم وتنهدات النساء،
وتركَتْني أتسول عمراً آخر وعالماً جديداً عسيراً.
أحوم حولك مدجّجة بالنوايا السيئة الطيبة للعشّاق،
أخشى الذهاب إلى حبك الخطر،
فعشقك يشبه قطار الأنفاق بعد منتصف الليل في نيويورك،
وكل من مرّ بحبك مفقود.
حين أفتح باب التفاحة،
هاربة منك قبل أن تسبقني للهرب،
أسقط في الفراغ الكوني، وأعوم في اللاجاذبية.
ليس صحيحاً أن الأرض كرة تدور في الفضاء،
معك تصير الأرض مسطّحة ومستوية،
وحين أغادرك أهوي عن نهايتها بلا نهاية!
آه لو لم يكن قلبك شاسعاً،
لو كان صدفة صغيرة تنطبق عليّ بإحكام،
ونهوي معاً إلى قاع بحر السندباد بسلام...
آه لو غادر جنّي علاء الدين القمقم،
وأدخلنا معاً وختمه بالرصاص والتعاويذ السحرية،
ونسينا فيه وحيدين إلى الأبد...
دون أن نضجر أو يقتل واحدنا الآخر!

١٩٩٦/٦/٧

رسالة من لعنة الذاكرة

ها أنا أفتح دفتر الليل . .
وأجدك بين السطور،
نجمة مضيئة نائية لا غلطة مطبعية .
ها أنا أفتح كتاب الأمواج،
أطالع أبجدية المحار،
فأعثر على لؤلؤة تشع ببريق عينيك حين تغضب .
ها أنا أغلق دفاتر الليل والموج والمحار والدفاتر العتيقة كلها،
أراقص النسيان في الغابة الشهية المحرمة حتى شروق الشمس،
لكنني حين أنظر فوق صفحة الغدير لأرى صورتي كأي نرجس،
أرى صورتك أنت ويشرق وجهك عليّ بدلاً من وجهي . .
تراني أضعت وجهي يوم أضعتك؟

١٨/٥/١٩٩٦

رسالة من عراء الذكريات

أكره أخلاق المنشار،
الذي لا يحقّق ذاته إلا وهو يقصّ الآخر.
لكنني لا أستطيع التخلّي عن أصدقائي
لمجرد أنهم غدروا بي مرة،
ولا عن حبيبي، لمجرد أنه خانني مرة.
ألم أغدر أنا أيضاً مرة، وأخون مرات؟

١٩٩٦/٦/٧

رسالة من سيدة الحنين

أجلس في المقهى البحري،
أتأمل المراكب تولد من اللانهاية.
وأراك آتياً من القارّة المقابلة، ماشياً فوق الماء،
مسرعاً لتشرب القهوة معي كعادتنا قبل أن تموت.
لم يتبدل شيء بيننا، لكنني صرت أحتفظ بلقائنا سراً،
فالناس حولي يتوهمون أن من يموت لا يعود!

١٩٩٦/٦/٦

رسالة هاربة إلى . . . فخ!

هاربة إلى حبك من عالم متوحش،
يفقأ عيون الأطفال ببسالة تحت عشرات الشعارات «المجيدة».
هاربة إلى رقتك،
يا من يخاف من الظلام كالأطفال،
يبكي مثلهم حباً وغيرة . .
يمشي تحت المزاريب في المطر محتفياً بزكامه.
هاربة من المستنقعات المتحركة المعدنية
إلى كوكب المدى والشفافية حيث تقيم . .
في قلبي حنين جارف إلى صحراء شاسعة،
جلدتها الشمس حتى طهّرتها،
ألمح عبر ليلها الأبدية، كما لمحتها ذات فجر في تدمر،
وكانت جدتي زنوبيا لا تزال تستقلّ حصانها،
راكضة على خط الأفق.
تهبّ في قاعي رياح الشوق
إلى أفراح ريفية ونجوم قروية ترشها بيدك
على المخمل الأسود للسماء.
أحنّ إلى قبلات القمر على عنق شجرة الحور الفضية،
ومشاكسة الريح لقامات أشجار الصفصاف

في آماد لم تسمع يوماً صوت إطلاق رصاصة،
أو بكاء سجين يتعذب أو انفجارات قنابل،
أو أصواتاً جهنمية تُطلق عبر الميكروفونات،
أبجديات الكذب متعددة الجنسيات . .
على الأضرحة الفاخرة لهزائمنا المتعاقبة.
هاربة إلى حبك من عناوين الصحف
ونشرات الأخبار والشاشات التلفزيونية وصور المذابح،
والقلوب المنخورة بالجدري الروحي،
والصداقات المريضة بالإيدز،
والجنس الميكانيكي والضحك المعلّب،
وهذيان السهرات الباريسية.
هاربة إلى حبك بعدما صلبني زمني طويلاً
على حديد الهوائي فوق ناطحة سحاب،
ودارت بي الأطباق اللاقطة المكهربة في ليل المدن المذعورة . .
هاربة إلى مطرك وقهوتك،
في الأمسيات البدوية المفتوحة على المدى والدهشة . .
هاربة إلى حبك، فهل يكون فخاً؟

١٩٩٦/٦/٤

رسالة إلى حبك الدمشقي

منذ عصور وأنا أتوغل في حبك،
آملة أن أتعرف على نفسي.
في حبك شيء من حرارة أهل دمشق،
وياسمين دمشق وعذوبة دمشق،
وحرير مياهها وزمني الغابر اللامنسي في بلاطها.
أتوغل في خضرة حبك،
أخطو إلى أحشاء الأشجار لعلني أتعلّم الاستقرار،
لكنني حجر لا ينمو عليه العشب إلا إذا تدحرج!

١٩٩٦/٦/١

رسالة ضد المساواة

من ساواك بنفسه ظلمك كثيراً!
ما ذنبك إذا كان يحب السلطة وأنت تحب الحرية؟
ما ذنبك إذا كان عاشقاً للموت، وأنت تحب الحياة؟
ما ذنبك إذا كان حائراً:
هل لأهل الجنة لحى أم لا،
وأنت حائر كيف تدخل القرن الحادي والعشرين هكذا..
متسولاً على أبواب التاريخ؟

١٨/٥/١٩٩٦

رسالة إلى سلطان النسيان

برمل الحرية أطمر نفسي على الشاطىء حتى العنق.
انتهى زمان كنت فيه موؤودة برمل القهر على طول مئات الأعوام.
وها أنا في جزيرة مهرجان الحواس.
متهمة بالبحر،
شبق الأمواج النهمة جيئة وذهاباً على بشرة أشعلتها الشمس.
متهمة بالريح،
أرافقها بلا تأشيرات إلى حيث تهب رياح قلبي.
متهمة بالمسافات،
أمتطي صهوتها
إلى حيث لا أدري في أروقة الدهشة والغموض.
متهمة بحبك، وفخورة بذنبي.
متهمة ببراءتي من نسيانك،
على أمل أن يكون عقابي بك
السجن المؤبد في دورتك الدموية!
منذ أحببتك،
وأنا أمارس مهنة الغوّاص داخل حروقك، وتحت جلدك.
ثمة أيام، أشعر فيها

أن شروق الشمس في «واكيكي» هاواي،
شيفرة سريّة
لصوتك الهامس: اذكريني اليوم أيضاً!
ثمة أيام أشعر فيها
أنك الرجل الوحيد على كوكبنا
القادر على فعل الأمومة،
فقد أنجبت أنت طفلاً نادراً اسمه الحب!
أعاقر الأمواج،
أحاور الأسماك عنك تحت الماء بلا صوت،
وهي تلصق شفاهها بالزجاج الشفاف لقبعة الغوص قرب فمي.
حين أنظر إلى ساعتي، أنسى الوقت
وأتذكر أنه منتصف الليل عندك.
لماذا ساعتي تمضي في غير درب ساعتك؟
لماذا توقيت زمنك غير توقيتي ما دمت تقطنني،
وتوقّع اسمك على صدري بوشم من حبر؟
أيها البعيد على مرمى عمر،
القريب كذاكرة: «ألوها»... كما يقولون هنا
بإيقاع الأقدام العارية لحسناوات الجزر،
بين الخضرة المتوحشة والزرقة الداكنة،
وهن يرقصن جنونهن فوق طبول الشواطىء البكر،
بعقود الزنبق الأبيض وثوب أوراق الأشجار والتنهّد..
كأنهن عرفنك ذات يوم..
فتمرّدن على سلطان اسمه النسيان!

١٩٩٤/٨/٢٦

رسالة الأشباح اللطيفة

الجزر هنا في هاواي مليئة بالأشباح،
تحدّثني بلغات أجهلها لكنني أفهم ما تقوله لي!
أتعجب من الذين يخافون الأشباح.
الأشباح تؤنسني، رفيقة ليلي،
تحميني من خواء الظلام ووحشته ووحشية البشر.
الأشباح لطيفة كالعاشق، ضالّة ووحيدة مثله.
تنتحب ليلاً على ستائر الظلال مثله،
تمنحني حنانها في الظلام بلا ألاعيب عاطفية،
ولا مشاجرات، بعيداً عن حب التملك.
الأشباح راعشة كالعاشق،
تسيل دموعها ليلاً على زندي،
تهمس عذاباتها، تنام معي على وسادتي
ثم تذوب مع الفجر،
كحبيب خفيف الظل، ينتعل الظلام ويقطن الريح..
حبيب أسيء فهمه على مرّ العصور..
فهام بين كثبان لوعته في الصحارى وعلى الشواطىء..
في الغابات والجبال.. تقمص الريح.
أيها البعيد القريب،

إذا داعبتْ يدٌ لامرئية خيام قلبك بعد موتي،
لا تخف:
إنه شبحي!

١٩٩٤/٨/٥

رسالة مغفلة من التوقيع

حينما أستحضرك في ذاكرتي،
يصير المساء مرهف الريح،
تمشط الجزيرة شعرها بمشط من ضوء القمر،
ترقص أشواقي معها بقدمين حافيتين على الشواطىء البكر
لهاواي،
وفي الغابات فوق زئبق الموج المشع بأمسية فسفورية البريق.
حبك مفتاح لا باب له، إذ قفله الفضاء.
تزوجت من غيابك.
لماذا لظلك اللامرئي
حضور بكتفين كسارية على مائدتي،
أكثر كثافة من حضور رفيق سهرتي؟
أكاد أراك عبر القارات،
يتنهّد البحر حين تخطو إليه لتسبح،
ويرتجف صدر الموجة حين تحتويك.
خلف الصخرة أختبىء،
أرسمك في قصيدة حب مغفلة من التوقيع!
تفرّقنا القارات،
لكن ما هو أعمق من الحب يجمعنا: الحلم والحبر.

كلانا يسيل الحبر من عينيه حين يبكي،
كلانا يحلم الحلم ذاته في الليلة ذاتها،
كأننا نرى فيلماً واحداً
ولكن على شاشتين مختلفتين.
كلانا يتوهم اللغة قمحاً،
يزرعها ويرعاها،
يعزف لها على عود الحزن في ليالي الحصاد.
كلانا يتوهم النجوم كلمات حب نادرة
لعشّاق غابرين، حالماً بأن يطرز السماء حين يكتب
بنجمة جديدة مثلها يقطفها من براري قلبه..
كلانا يتوهم قدميه مركبة فضائية،
يقلع بها كل ليلة إلى كوكب الحلم.
يظنه الآخرون نائماً على الشاطىء تحت قبعته القشية،
ولا يعرفون أنه يرقص طفلاً في مجرات نائية الأسرار..
حين أطالع حروفك أينما كنت،
ينبت للسماء قوس قزح
وتنفتح في صدري نافذة على الضوء.
وحين أكتب عنك،
تلتمع ورقتي وأنا أخطّ عليها سطوري،
كسطوح القرميد بعد المطر في قرى لبنان.
الآن سأكتب اسمك على هذه الورقة فتتحول إلى مرآة سحرية.
وها أنا أدخل إليها وأقفل الباب خلفي وألتقيك!

رسالة من شظيّة حب

قال لي: كم من الجرائم
ارتكبت أيتها المرأة باسم الحرية؟
قلت له: كم من الجرائم
ارتكبت أيها الرجل باسم الرجولة والفحولة؟

★ ★ ★

كان عليَّ أن أطلق الرصاص على ذكراك
دفاعاً عن حياتي.
وكان عليَّ أن أفشل في نسيانك
دفاعاً عن إنسانيتي.
ممددة بين لا ونعم،
أمشي إلى غدي ساقاً في الجليد وأخرى في النار!
ولكنني أستمر وعكازي قلمي..
لقد عبرتني أحزان نساء بلادي على مدى عصور،
واخترقتني آهاتهن السرية في مخادع العتمة والبكاء والسياط..
وتقمّصت جسد رفضي فأشعلته كمصباح.
وها أنا أرتعش برفة صدورهن كعصفور
يهمّ بالتحليق من أقفاص لامرئية.
ثمة أجيال من النساء تسبح في دمي،

والسيّاف يلاحقهن!

* * *

لقد غادرت أوكار الهمس
وأعلنت أجنحتي ضد الخرائب..
لن أكون خفّاشاً، يقضي عمره معلّقاً عكس الجاذبية،
ليتوهم الدنيا المقلوبة رأساً على عقب، بخير..
مئات الأعوام وأنا أقرض بهدوء قيودي الحديدية،
مئات الأعوام وأنا أرفض التعايش السلمي مع الجزرة والعصا،
مئات الأعوام وأستاذي الببغاء يحاول عبثاً تعليمي..
كيف أقول ما لا أضمر، وأفعل ما أرفض!
وها أنا أفتح باب الفضاء،
راحلة بلا عتاب.
لا مسرحيات درامية للنهايات الهزلية..
وذكراك، شظية حب ضلّت طريقها في أزمنة شرسة..
حزينة؟ أخاف من الفرح لأنه أرعن، حار، وأخرق!

١٩٩٢/٨/٢١

رسالة النوايا السيئة

كأنك ألفت التعامل مع نساء سجينات،
وها أنت تمارس ألاعيبك العتيقة مع أنثى الحرية فتخسر..
يا شهريار الذي يعذب نفسه كي يعذبني،
ألا ترى أنك تحرّرني؟
ألا ترى أنني من جيل آخر من النساء، يتكاثر حولك ويتناسل،
ويملأ شقوق الشمس، ولا تلاحظه؟
لقد انتهى زمن إذلالنا بالحب، ولم يعد بوسعك
توزيع جسدك علينا (كالإعاشة) لقطيع جياع الذل...
إنني أحلّق فرحاً بجناحيّ،
أرحّب بالريح، بالبحر بالدهشة بالعاصفة بالعناصر بالأسرار..
فهل تحب أن نطير جنباً إلى جنب،
لأفرح بوميض الشمس على بهائك؟
لعلّنا خُلقنا لنظل هكذا خطّين متوازيين يعجزان عن الفراق
وعن التواصل..
ولن يلتقيا إلا إذا انكسر أحدهما!

١٩٩٢/٨/٢١

مقدمة من

الرمحي أحمد

كتاب & رواية

facebook.com/groups/bookbooknovels

... إنها أغنية نادرة حقاً في سيمفونية أدبنا العربي المعاصر»

إبراهيم عباس ياسين، جريدة «الثورة» السورية» ١٩٩٧

... تجربة أدبية كبيرة لا تقارن إلا بالشوامخ من أدباء وأديبات العالم، إنها بالنسبة للعرب كما طاغور عند الهنود أو لوركا القاسم المشترك بين العرب والإسبان ... كاتبة تعيد الثقة بقدرة المرأة على أن تكون مبدعة لا ملهمة للمبدعين، كاتبة وشاعرة لو كانت الكاتبات والشاعرات مثلها لتفوقن على الكتاب والشعراء»

جهاد فاضل، مجلة «الحوادث» ١٩٩٩

... ما أكثرك يا غادة وما أقلنا، حين يتوالد العرب بقدر أحلامك وعذاباتك وهذا الهوى المشبوب في كل نبض من كلماتك، سيتعلمون من جديد صناعة الحضارة وخلق أنفسهم»

فضل النقيب، جريدة «الاتحاد الإماراتية» ١٩٩٨

... غادة شاعرة أولاً في كل ما كتبت وأبدعت ... وهذه الشاعرة التي في داخلها لا تسعى الى طرد الكاتبة، بل الى التكامل معها لتكتمل صورتها المبدعة أمام عيون الذواقين وأمام مباضع النقاد»

لامع الحر، مجلة «الشراع» ١٩٩٩

... بقلم مضمخ بقلق الأسئلة الوجودية وعذابات الوطن ومعاناة الإنسان في المجتمع العربي التي تنتمي غادة إلى الأمة، تركت غادة للتاريخ الوجداني العربي وثيقة شعرية نادرة من وثائق الحب والحنين»...

نزار فلوح، مجلة «الطليعة» ١٩٩٩

... شاعرة من طراز خاص لها بصمة واضحة الملامح في مسيرة الأدب»

هيفاء زهران، مجلة «سور الهيا» ٢٠٠١

منشورات غادة السمان